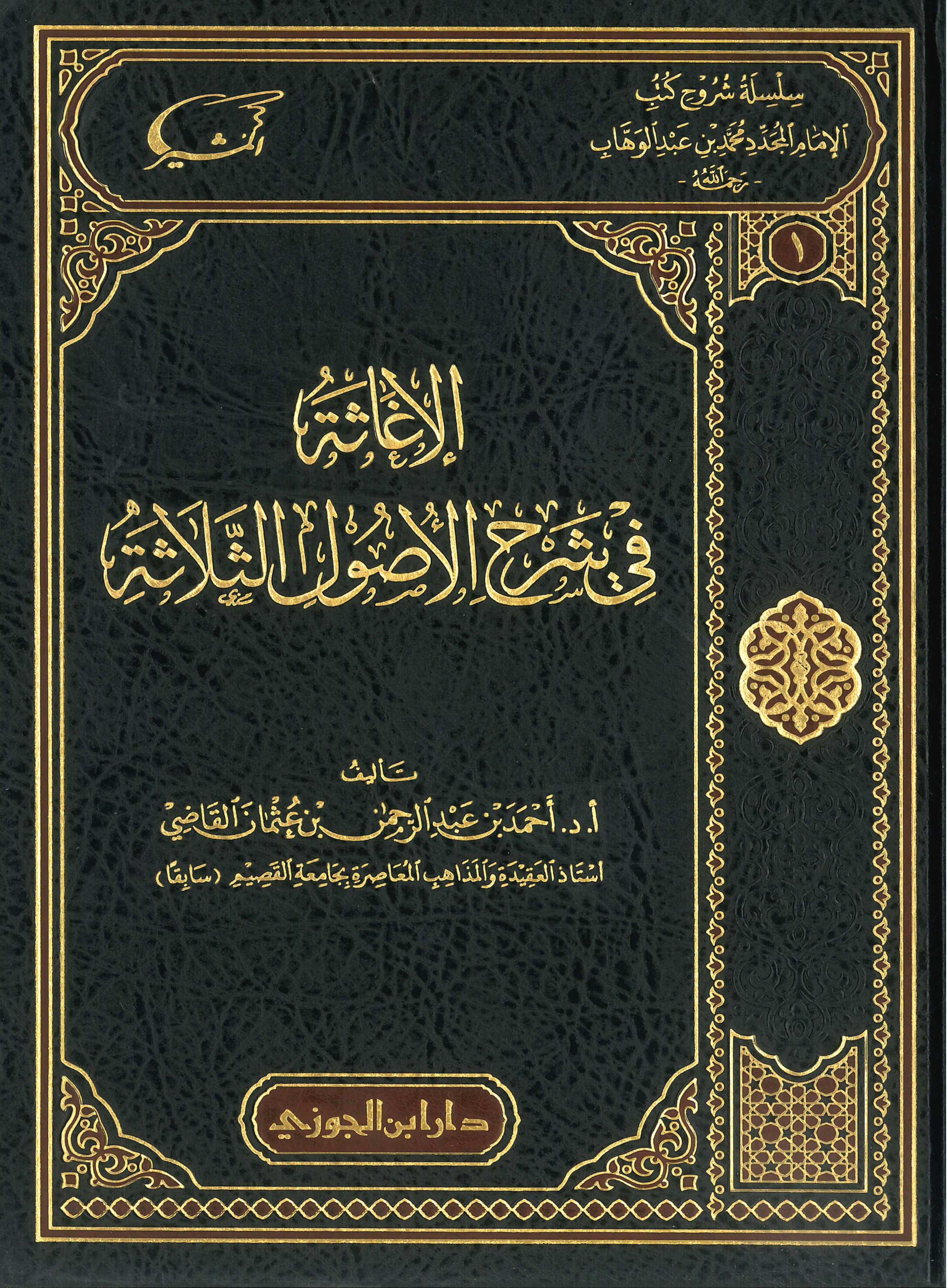
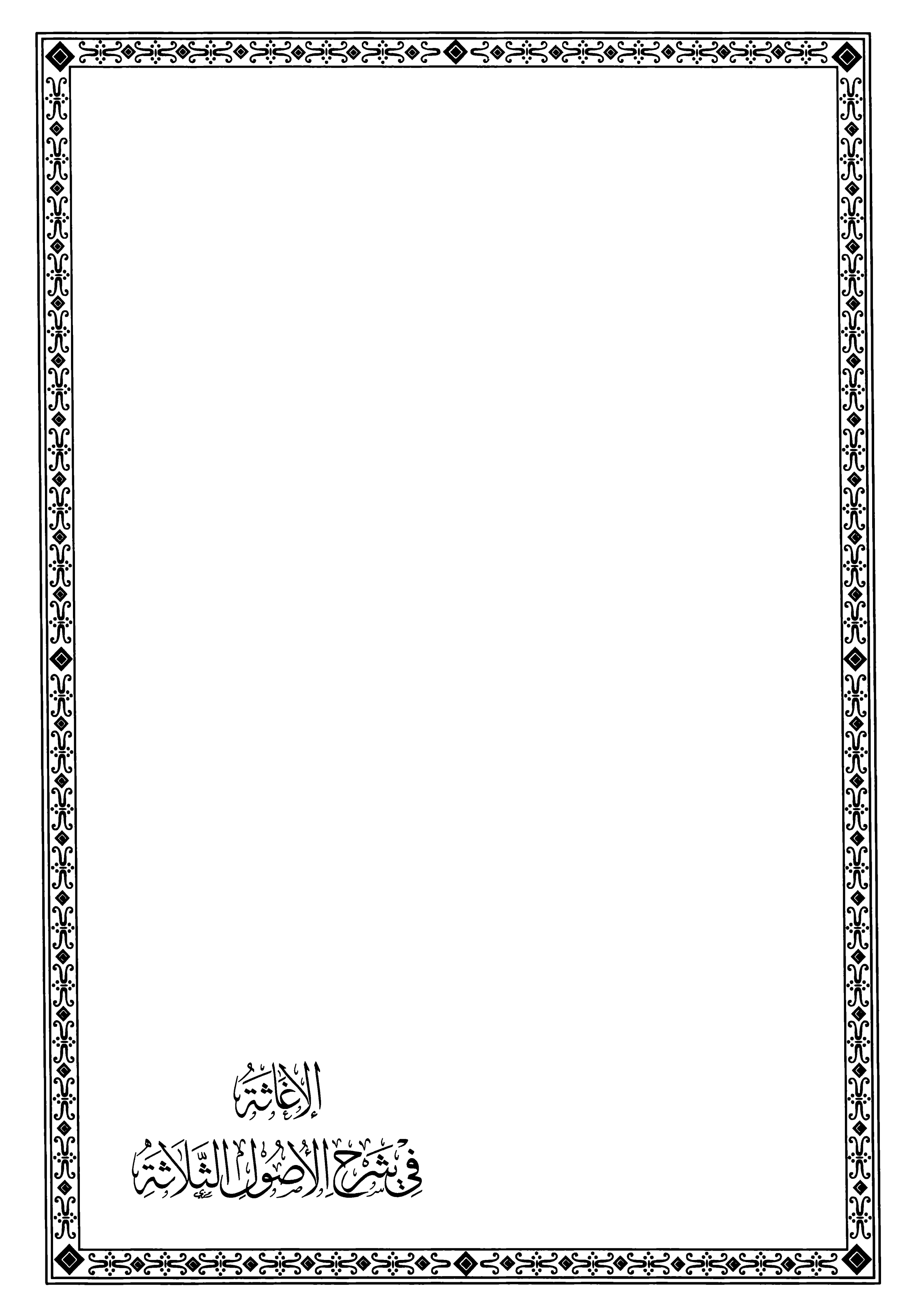
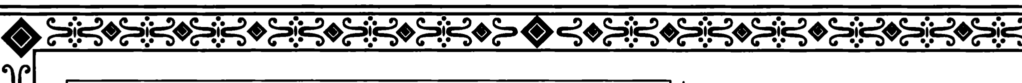


سلسلة شروح كتب
الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب
- رحمه الله -
١
الإغاثة
في شرح الأصول الثلاثة
تأليف
أ. د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة القصيم (سابقًا)
دار ابن الجوزي



الإغاثة
في شرح الأصول الثلاثة



ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاضي، أحمد عبد الرحمٰن
الإغاثة في شرح الأصول الثلاثة لابن عبد الوهاب./
أحمد عبد الرحمٰن القاضي.- الدمام، ١٤٤٢هـ
٢٥٤ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ١ ـ ١٣ ـ ٨٣٣٨ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ العقيدة الإسلامية ٢ ـ التوحيد أ. العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٤٢/٨٠٣٢



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣
٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

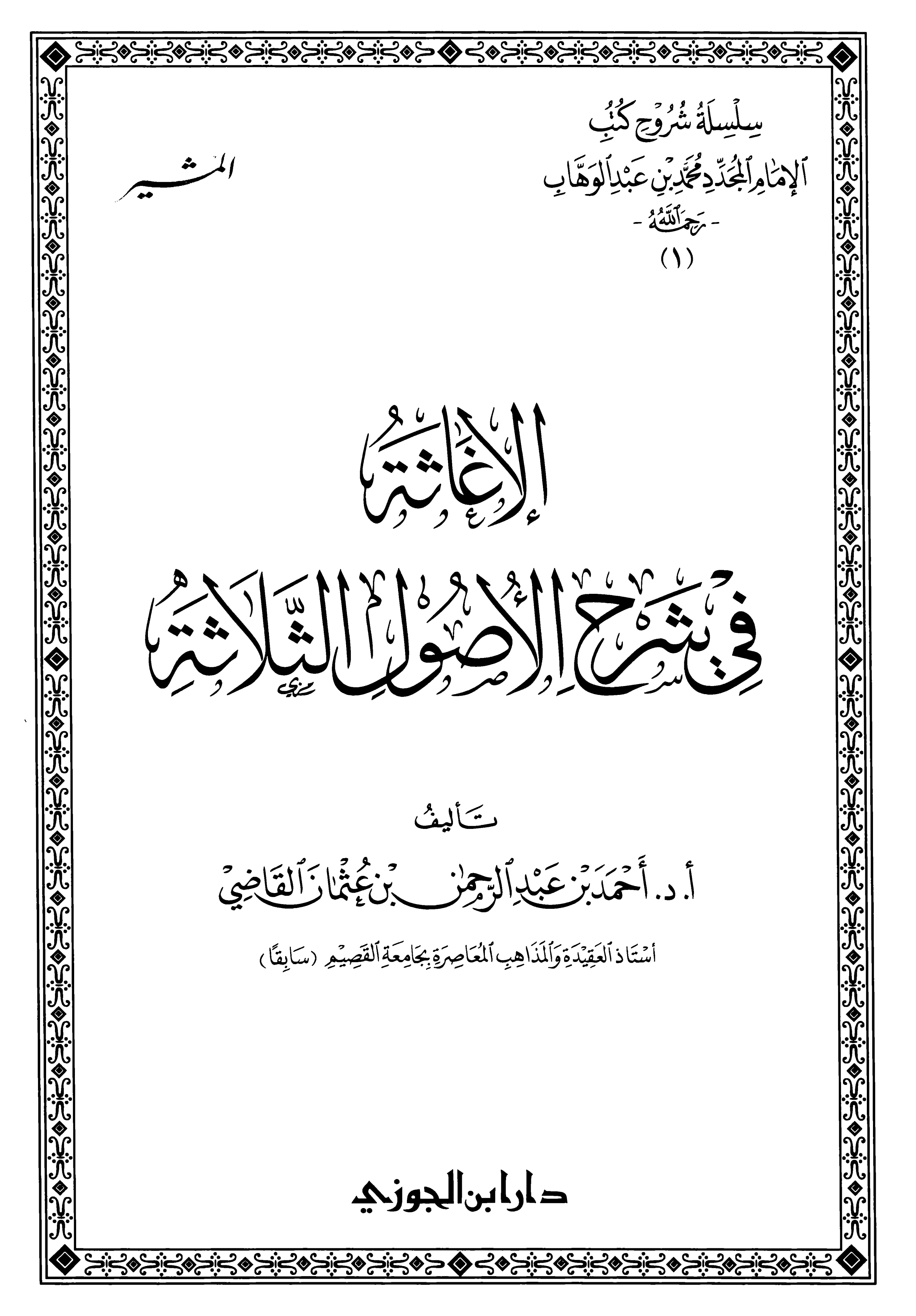
مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ

الباركود الدولي: 9786038338131





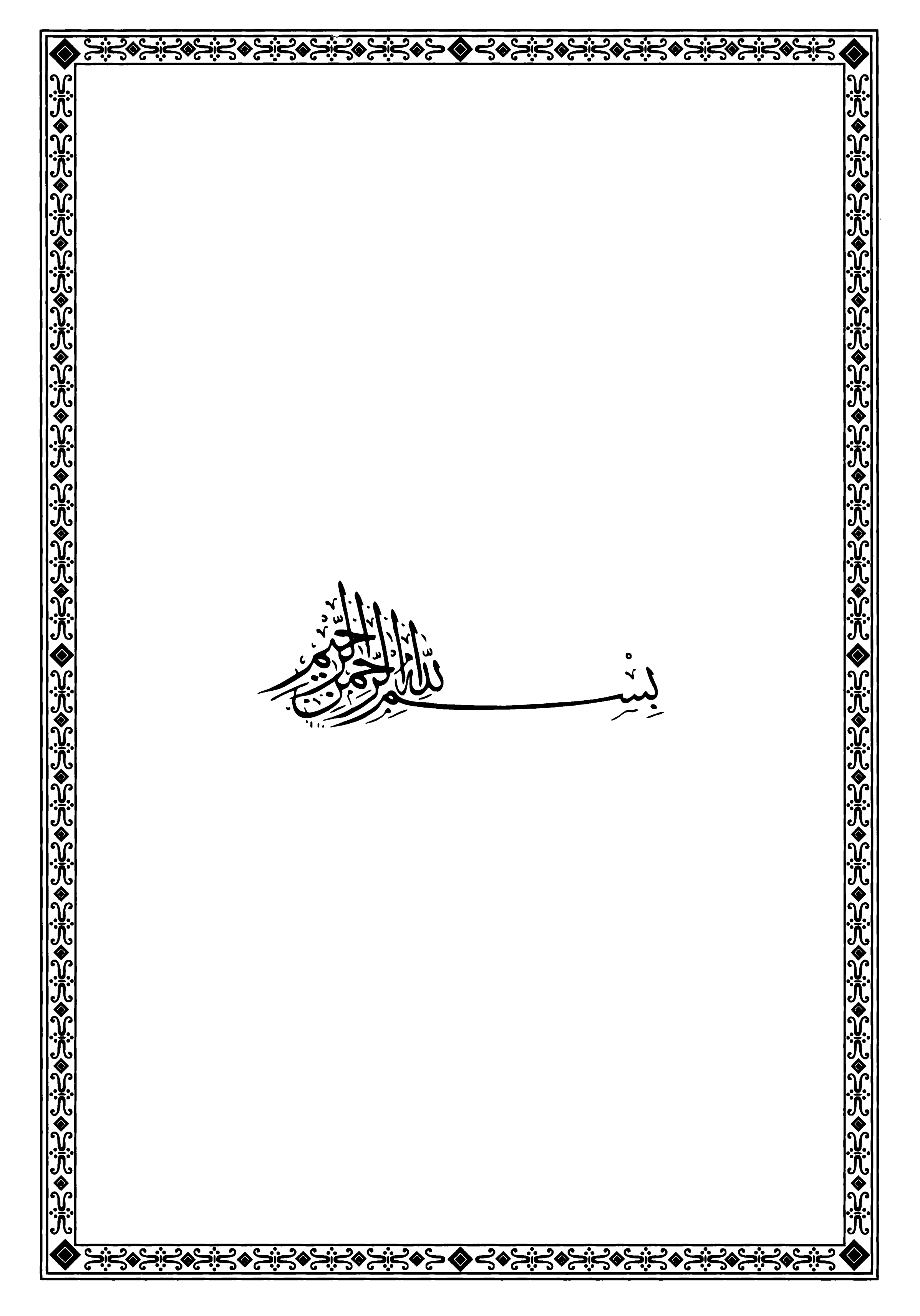
سِلْسِلَةُ شُرُوحِ كُتُبِ
الإِمَامِ المُجَدِّدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الوَهَّابِ
- رَحِمَهُ اللَّهُ -
(١)

المشير

الإِغَاثَةُ فِي شَرْحِ الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ

تأليف
أ. د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة القصيم (سابقًا)

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدِّمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: ١]، والصلاة والسلام على من أقام اللهُ به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إلٰه إلا الله، ففتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا[1].

أما بعد:

فإن كتاب «**الإغاثة في شرح الأصول الثلاثة**» أو «ثلاثة الأصول»، للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحد الكتب المباركة، التي انتفع بها القاصي والداني، والعالِم والعامِّي، في جزيرة العرب وخارجها، فقد امتاز ـ على صغر حجمه ـ بعدة مزايا منها:

أولًا: التأصيل والعناية بالدليل: فلا يكاد الشيخ يذكر مسألة حتى يُتبعها بالدليل، ولا شك أن هذا من أعظم أسباب القَبول.

ثانيًا: الوضوح والبيان: بخلاف كتب المتكلمين وتعقيداتهم اللفظية، فكثيرٌ ممن يؤلف في العقائد، يؤلف كلامًا يصعب حله وفكه على آحاد الناس، أما الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد سلك طريقة القرآن والسُّنَّة في الوضوح والبيان، فجاء كلامه سهلًا ميسرًا يفهمه كل من قرأه.

ثالثًا: التقاسيم النافعة: وذلك نوع من تقريب العلم لطلبته، فإن من

---

(١) اقتباسًا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في نقله صفة رسول الله ﷺ في التوراة كما في صحيح البخاري، رقم: (٢١٢٥).

أهل العلم من ينشر العلم نثرًا لا يتمكن سامعه من جمع أطرافه. وحُسن العرض والترتيب من أعظم دواعي الفهم والقَبول.

رابعًا: استعمال طريقة السؤال والجواب: وهي طريقة قرآنية نبوية؛ لأنها تثير ذهن المتلقي، وتُذهب عنه البلادة والرتابة.

خامسًا: التلطف بالقارئ والشفقة عليه والدعاء له، كقوله: رحمك الله، أرشدك الله. ولا شك أن مثل هذه الجمل تحبِّب القارئ بمؤلف الكتاب، ومحتواه.

وكان للشيخ المجدد رَحِمَهُ اللَّهُ عناية بهذا المتن. قال الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ يلقن الطلبة والعامة هذه الأصول ليدرسوها، ويحفظوها، ولتستقر في قلوبهم، لكونها قاعدة في العقيدة»[١].

وسار على خطاه بنوه وتلامذته من بعده، وعلماء الدعوة السلفية في البلاد النجدية، فاعتنوا بهذا المتن، وجعلوه مبتدأ الطلب في علم العقيدة؛ لتعلقه بأصل الدين والملة.

وقد منَّ الله عليَّ بشرح هذا المتن عدة مرات. وكانت إحداها في الدورة العلمية التأصيلية الأولى المُقامة في جامع الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ بمحافظة عنيزة، في شوال سنة ١٤٣٠هـ. فقام الإخوة بتفريغ هذا الشرح، وعرضه عليَّ، فراجعته، وهذبته، بما يقتضيه الحال من إعادة صياغة العبارة الإلقائية؛ كحذف التكرار، والاستطراد، وترتيب المعاني؛ لتكون مناسبة للقارئ. فجاء ـ بحمد الله ـ على هذا النحو الميسَّر.

---

(١) شرح ثلاثة الأصول، لابن باز (ص٥)، ط. مدار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٤م.

وقد جعلت بين يديه مقدمة تعريفية بحقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومضامينها؛ لبيان الحق، ودفع الشبه التي يثيرها أعداء التوحيد، بين الفينة والفينة، على هذه الدعوة الإصلاحية التجديدية المباركة، وصاحبها وأتباعها.

واللهَ تعالى أسأل أن ينفع بشرحه، كما نفع بأصله، وأن يسلكني في نظام الداعين إلى دينه، الممسكين بكتابه، المقتدين بهدي نبيه ﷺ.

والحمد لله ربِّ العالمين

كتبه

أ. د. أحمد بن عبد الرحمٰن بن عثمان القاضي

عنيزة في ١٤٣٧/١٢/٤هـ



حقيقة دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

الحمدُ لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُحيون بكتاب الله الموتى، ويبصِّرون بنور الله أهل العمى. فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه! وكم من ضال تائه قد هدوه! فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين[١].

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده، لا شريك له، القائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤)﴾ [السجدة: ٢٤]، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله القائل: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»[٢]. **أما بعد:**

فلقد كان شيخ الإسلام، الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي، المشرَّفي، الوهْبي، التميمي رحمه الله، مجدد القرن الثاني

(١) ينظر: مقدمة الإمام أحمد في كتابه الرد على الجهمية والزنادقة (ص٥٥).

(٢) أخرجه أبو داود، رقم: (٤٢٩١)، وصححه الحاكم في المستدرك، رقم: (٨٥٩٢)، وقال الحافظ ابن حجر بعد أن نقل احتجاج الإمام أحمد والزهري وغيرهما بهذا الحديث: «وهذا يُشعر بأن الحديث كان مشهورًا في ذلك العصر، ففيه تقوية للسند المذكور مع أنه قوي لثقة رجاله». ينظر: توالي التأسيس (ص٤٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: (٥٩٩)، والأرناؤوط في تحقيق سنن أبي داود.

عشر الهجري بحق. فقد كانت ولادته سنة ألف ومائة وخمس عشرة (١١١٥هـ)، ووفاته سنة ألف ومائتين وست (١٢٠٦هـ)، فانطبق عليه شرط التجديد، كما قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «المراد من انقضت المائة وهو حي، عالم، مشهور، مشار إليه»[١]. وقال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

والشرط في ذلك أن تمضي المئة ... وهو على حياته بين الفئة
يشار بالعلم إلى مقامه ... وينصر السُّنَّة في كلامه[٢]

وقد جهر الشيخ بدعوته، وتصدى للناس بعد وفاة والده القاضي عبد الوهاب سنة ألف ومائة وثلاث وخمسين (١١٥٣هـ)، وعمره يناهز الأربعين، فأمضى نصف قرن من الزمان في حركة دائبة، غيرت مسار التاريخ، وكان لها ما بعدها. ومن ثَمَّ تنازع الكتَّاب والمحللون، في حقيقة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ هل كانت تجديدًا دينيًّا؟ أو نشاطًا علميًّا؟ أو إصلاحًا اجتماعيًّا؟ أو مشروعًا سياسيًّا؟ أو هو جميع ذلك؟ ناهيك عما ينبزها به خصومها الظالمون من الدعاوى المغرضة؛ بأنها مذهب خامس، أو حركة خوارج تكفر المسلمين، وتستبيح دماءهم!!

إن من السهولة بمكان على الباحث المنصف أن يجد الجواب الصريح على هذه التساؤلات، والرد المفحم على هذه الشبهات، فيما خلَّفه الشيخ وتلاميذه من تراث ضخم، وفيما حفظه التاريخ من وقائع وأعمال تنبئ عن حقيقة هذه الدعوة الفريدة.

ويمكننا الإشارة إلى جملة من المعالم البارزة في دعوة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

---

(١) جامع الأصول (١١/٣١٩).

(٢) نظم تحفة المهتدين بأخبار المجددين، للسيوطي.

أولًا: تحقيق التوحيد:

لا ريب أن عماد دعوة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ باتفاق الموالين والمناوئين، توحيد الله عَزَّوَجَلَّ بأنواعه الثلاثة:

١ ـ **توحيد الربوبية**: وهو توحيد الله بأفعاله؛ من الخلق، والملك، والتدبير.

٢ ـ **توحيد الألوهية**: وهو توحيد الله بأفعال العباد؛ كالدعاء، والنذر، والذبح.

٣ ـ **توحيد الأسماء والصفات**: وهو توحيده بما سمَّى ووصف به نفسه.

وقد عُني الشيخ عناية خاصة بتوحيد العبادة، وقرره بأوضح عبارة، فقال في «الأصول الثلاثة»: (اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملةَ إبراهيم، أن تعبد الله وحده، مخلصًا له الدين. وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومعنى يعبدون: يوحِّدون. وأعظم ما أمر الله به التوحيد، وهو إفراد الله بالعبادة، وأعظم ما نهى الله عنه الشرك، وهو دعوة غيره معه. والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]).

وظل الشيخ يأوي إلى هذا الركن الشديد في جميع مؤلفاته ومكاتباته ومراسلاته، يدعو الناس إلى تحقيق التوحيد، وتصفية العقيدة، وإخلاص العبادة التي بعث بها النبيون. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فطفق يبين للناس حقيقة التوحيد، ومقتضى شهادة أن لا إلٰه إلا الله، ومعنى الحنيفية.

وقد استهل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ كتاب التوحيد بالأبواب التالية:

١ ـ باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب.

٢ ـ باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب.

٣ ـ باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

٤ ـ باب الدعاء إلى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

ثانيًا: التحذير من الشرك:

اجتناب الشرك قرين التوحيد ولازمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقد رأى الشيخ بعينَي رأسه ما آل إليه حال الأمة الإسلامية، لا في بلاد نجد فحسب؛ بل في جميع الأقطار التي زارها وقت الطلب؛ في البصرة، والزبير، والأحساء، ومكة، والمدينة، حتى إنه صنف أشهر كتبه؛ «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد»، حين كان في البصرة، لِما رأى من حال العامة، ووقوعهم في الأعمال الشركية. فلما أنكر عليهم أخرجوه وقت الهاجرة، حتى كاد أن يهلك من العطش. وعاين بعض الجهال حال وقوفهم عند الحجرة النبوية، وهم يدعون، ويستغيثون بقبر النبي ﷺ فسأله شيخه المحدث محمد حياة السندي رَحِمَهُ اللهُ: ما تقول؟ فقال الشيخ: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)﴾ [الأعراف: ١٣٩].

ومن هنا، فقد عُني الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتتبع مظاهر الشرك العملي، المؤسَّس - غالبًا - على شرك اعتقادي. ويظهر ذلك جليًّا في أبواب «كتاب التوحيد» مثل:

باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما، لرفع البلاء أو دفعه.

باب ما جاء في الرقى والتمائم.

باب من تبرَّك بشجرة أو حجر ونحوهما.

باب ما جاء في الذبح لغير الله.

باب من الشرك النذر لغير الله.

باب من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره... إلخ.

بالإضافة إلى الأبواب المتعلقة ببعض الممارسات الشركية؛ كالسحر، والنشرة، والطيرة، والتنجيم. والأبواب المتعلقة بالشرك الأصغر من الألفاظ، كقول: (ما شاء الله وشئت)، وقول: (عبدي وأمتي)، وقول: (مُطرنا بنَوء كذا وكذا)، والحلف بغير الله. وفوق ذلك، عقد أبوابًا تتعلق بسد الذرائع المفضية إلى الشرك، مثل:

باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم، وتركهم دينهم، هو الغلو في الصالحين.

باب ما جاء في التغليظ فيمن عَبَدَ الله عند قبر رجل صالح.

باب ما جاء أن الغلو في الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله.

باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك.

إن هذا الحس الإيماني المرهف لدى الشيخ، وتتبعه لجذور الشرك، ومظاهره، وذرائعه، قد أحيا في الأمة روح التوحيد الخالص، الذي غشيته غواشي البدع، وكدرت صفاءه تراكمات الشرك، والتعلق بغير الله. لقد كان مشروع الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تجديد دعوة المرسلين، ونفض غبار السنين الذي حجب نقاء التوحيد.

ثالثًا: الولاء والبراء:

لم تكن دعوة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تقريرًا عقديًا، أو تنظيرًا علميًّا، فحسب؛ بل كانت تطبيقًا عمليًّا جادًّا، يسعى لتمثل المبادئ والعقائد التي يؤمن بها واقعًا معاشًا، يترسم السيرة النبوية، ويحاكيها في مواجهة المخالفين، مع الأخذ بالاعتبار الفروقات الأساسية في التعاطي مع مجتمع كافر يدعى إلى الإسلام، كما في الحال النبوي، ومجتمع مسلم دبَّت فيه بعض مظاهر الشرك، كما في حالة الشيخ.

إن الولاء والبراء تابعان للإيمان، ومعتقد أهل السُّنَّة والجماعة أنه يمكن أن يجتمع في المؤمن ولاية من وجه، وعداوة من وجه، بناءً على أصلهم العظيم في مسألة الإيمان؛ أنه يمكن أن يجتمع في المؤمن طاعة ومعصية، وبر وفجور، خلافًا للخوارج والمرجئة على حدٍّ سواء؛ فالناس يتفاضلون في ولاية الله، بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، فهي تزيد وتنقص، وتكون كاملة وناقصة؛ فالمطيع تزيد ولايته ومحبته، والعاصي تنقص ولايته ومحبته، وتأسيسًا على ما تقدم، فقد ألحَّ الشيخ في كثير من تقريراته على مسألة الولاء والبراء، وضرورة التناصر بين المؤمنين، ومجافاة المبطلين، وإن لم يبلغ الأمر مبلغ الكفر.

وهذه الثلاثية: (تحقيق التوحيد، واجتناب الشرك، والولاء والبراء)، ثلاثية متلازمة عند الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، فهو يقول في «الأصول

الثلاثة»: (اعلم ـ رحمك الله ـ أنه يجب على كل مسلم ومسلمة، تعلمُ ثلاث هذه المسائل، والعملُ بهن:

الأولى: أن الله خلقنا، ورزقنا، ولم يتركنا هَمَلًا؛ بل أرسل إلينا رسولًا، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار. والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

الثانية: أن الله لا يرضى أن يشرك معه أحد في عبادته، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل. والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨].

الثالثة: أن من أطاع الرسول ووحَّد الله، لا يجوز له موالاة من حادَّ الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب. والدليل قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقد ظن بعض الناس أن ذلك يقتضي تكفير مخالفيه بإطلاق، وأنه يُلزم الناس بالهجرة إليه! ولكنه دفع هذه الفرية، وأنكرها بشدة، فقال: (.. وأما الكذب والبهتان، فمثل قولهم: إنا نكفِّر بالعموم، ونوجب الهجرة إلينا على من قدر على إظهار دينه، وإنا نكفِّر من لم يكفِّر، ومن لم يقاتل، ومثل هذا وأضعاف أضعافه؛ فكل هذا من الكذب والبهتان، الذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله. وإذا كنا لا نكفِّر من عبد الصنم الذي على عبد القادر، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي،

وأمثالهما، لأجل جهلهم، وعدم من ينبههم، فكيف نكفِّر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا، أو لم يكفر ويقاتل؟! سبحانك هذا بهتان عظيم)[١]. وقال أيضًا: (وأما ما ذكره الأعداء عني أني أكفّر بالظن، وبالموالاة، أو أكفّر الجاهل الذي لم تقم عليه الحجة، فهذا بهتان عظيم، يريدون به تنفير الناس عن دين الله ورسوله)[٢].

وقال في جوابه لابن صياح عندما طلب منه بيان موقفه فيما نسب إليه: (فمنها: إشاعة البهتان، بما يستحي العاقل أن يحكيه، فضلًا عن أن يفتريه، ومنها: ما ذكرتم أني أكفر جميع الناس، إلا من اتبعني، وأني أزعم أن أنكحتهم غير صحيحة، فيا عجبًا كيف يدخل هذا في عقل عاقل؟! وهل يقول هذا مسلم؟! إني أبرأ إلى الله من هذا القول، الذي لا يصدر إلا عن مختل العقل، فاقد الإدراك؛ فقاتَلَ الله أهلَ الأغراض الباطلة)[٣].

رابعًا: الاتباع، ونبذ الابتداع:

لما كان مقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله ـ كما فسرها الشيخ في الأصول الثلاثة ـ: (طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع)، فقد دعا إلى تعظيم النصوص، وتقديمها على أقوال الرجال، والاعتماد على الدليل، ونبذ التعصب والتقليد، ولكن! ليس إلى الحد الذي يهدر الفقه، ويجرِّئ السفهاء على أئمة الدين، وأعلام الأمة، كلا! بل لم يزل رَحِمَهُ اللَّهُ وتلاميذه، وأتباعه، ينمون أنفسهم إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل في الفروع، لكونه المذهب السائد في بلاد نجد، ويتبرأ من إحداث مذهب جديد،

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ١٠٤).

(٢) مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٥/ ٢٥).

(٣) الدرر السنية (١/ ٨٠).

كما يشغب عليه بذلك خصومه. فهو يقول: (وأما مذهبنا، فمذهب الإمام أحمد بن حنبل، إمام أهل السُّنَّة، في الفروع. ولا ندعي الاجتهاد. وإذا بانت لنا سُنَّة صحيحة عن رسول الله ﷺ عملنا بها، ولا نقدم عليها قول أحد، كائنًا من كان)[١].

ومع تأثر الشيخ بالإمامين، ابن تيمية، وابن القيم ـ رحمهما الله ـ إلا إنه يقرر بحزم: (الإمام ابن القيم وشيخه إماما حق، من أهل السُّنَّة، وكتبهم عندنا من أعز الكتب، إلا إنا غير مقلدين لهم في كل مسألة)[٢].

وقال أيضًا: (ولست ـ ولله الحمد ـ أدعو إلى مذهب صوفي، أو فقيه، أو متكلم، أو إمام من الأئمة الذين أعظِّمهم، مثل: ابن القيم، والذهبي، وابن كثير، وغيرهم؛ بل أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأدعو إلى سنة رسول الله ﷺ)[٣].

وقد تصدى رَحِمَهُ اللَّهُ للبدع الاعتقادية، والعملية، الحادثة في زمانه، ومن شواهد ذلك ما ذكره مؤرخ الدعوة، حسين بن غنام: (كان في العيينة وما حولها كثير من القباب والمشاهد، والمشاهد المبنية على قبور الصحابة والأولياء، والأشجار التي يعظمونها، ويتبركون بها، كقبة قبر زيد بن الخطاب، في الجبيلة، وكشجرة قريوة، وأبي دجانة، والذيب. فخرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومعه عثمان بن معمر، وكثير من جماعتهم، إلى تلك الأماكن بالمعاول، فقطعوا الأشجار، وهدموا المشاهد والقبور، وعدلوها على السُّنَّة. وكان الشيخ هو الذي هدم قبة زيد بن الخطاب بيده، وكذلك قطع شجرة الذيب مع بعض أصحابه،

---

(١) الدرر السنية (١/ ٥٧٧).
(٢) الدرر السنية (١/ ٢٤٠).
(٣) مجموع مؤلفات الشيخ (٥/ ٢٥٢).

وقطع شجرة قريوة ثنيان بن سعود، ومشاري بن سعود، وأحمد بن سويلم، وجماعة سواهم)[١].

خامسًا: إقامة الدين، وتحكيم الشريعة:

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣]، ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

لقد تميز الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عن كثير من المصلحين، بسعيه الدؤوب لإقامة دين الله، وتحكيم شرعه كما أمر. ولما كان أمر القرآن لا يتم إلا بهيبة السلطان، فقد عرض الشيخ دعوته على أولي الأمر، الذين بسط الله لهم نوع سيادة، ولم يسلك مسلك الخروج والتمرد. فابتدأ أولًا بمن يليه، وهو عثمان بن معمر، رئيس بلدة العيينة، فوافقه وناصره بادئ الأمر، إلا أنه تخلى عنه بسبب تهديدات سليمان بن محمد بن عريعر، رئيس بني خالد والأحساء. فقصد الشيخ بلدة الدرعية، سنة سبع أو ثمان وخمسين بعد المائة وألف، وأميرها يومئذ محمد بن سعود، ونزل على تلميذه أحمد بن سويلم. ويصف المؤرخ ابن غنام اللقاء التاريخي الذي تم بين الإمامين، محمد بن عبد الوهاب، ومحمد بن سعود ـ رحمهما الله ـ بقوله:

---

(١) تاريخ نجد (١/٧٨).

(لما سمع بذلك الأمير محمد بن سعود، قام من فوره مسرعًا إليه، ومعه أخواه: ثنيان، ومشاري، فأتاه في بيت أحمد بن سويلم، فسلم عليه، وأبدى له غاية الإكرام والتبجيل، وأخبره أنه يمنعه بما يمنع به نساءه وأولاده. فأخبره الشيخ بما كان عليه رسول الله ﷺ، وما دعا إليه، وما كان عليه صحابته رضي الله عنهم، من بعده، وما أمروا به، وما نهوا عنه، وأن كل بدعة ضلالة، وما أعزهم الله به بالجهاد في سبيل الله، وأغناهم به، وجعلهم إخوانًا، ثم أخبره بما عليه أهل نجد في زمنه من مخالفتهم لشرع الله وسُنَّة رسوله؛ بالشرك بالله تعالى، والبدع، والاختلاف، والظلم فلما تحقق الأمير محمد بن سعود معرفة التوحيد، وعلم ما فيه من المصالح الدينية والدنيوية، قال له: يا شيخ! إن هذا دين الله ورسوله، الذي لا شك فيه، فأبشرْ بالنصرة لك، ولما أمرت به، والجهاد لمن خالف التوحيد... فبسط الأمير محمد يده، وبايع الشيخ على دين الله ورسوله، والجهاد في سبيله، وإقامة شرائع الإسلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)[(١)].

لقد اكتملت بهذه الصفقة الإيمانية شرائط مشروع الإصلاح الكبير، واتحد السلطان والقرآن، وانبلج فجر جديد، من البعث والتجديد، لا في تاريخ نجد فحسب بل في تاريخ الأمة الإسلامية جمعاء. لقد تحولت الدرعية من بلدة نجدية مغمورة، إلى بؤرة نور، ترسل خيوط أشعتها الإيمانية محمولة في الصدور تارة، وعلى ظهور الخيول تارة، إذا أحوج الحال. وردَّد صدى الدعوة مجدِّدون في مواقع شتى من أرض الإسلام شد أزرهم، وقوى عزائمهم، هذه التجربة الفريدة، التي استلهمت السيرة النبوية مثالًا، وعضدها سيف السلطان إيمانًا وامتثالًا، فآتت أكلها كل حين بإذن ربها.

---

(١) تاريخ نجد (١/ ٨٠ ـ ٨١).

وبعد:

فهل استنفدت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أهدافها، ولم يبق شيء من مقاصدها وأغراضها؟ هل باتت حركة محنطة في متحف التاريخ، يتناولها الكُتَّاب والمحللون درسًا ونقدًا وتحليلًا؟

كلا! إن صح أن توجه هذه التساؤلات إلى دين الإسلام ـ وهيهات وأنى ـ صح أن توجه تبعًا لدعوة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب؛ لأن الحقيقة واحدة، وإن وقع شيء من الأخطاء البشرية، والتجاوزات الفرعية التي لا تثلم الأصل، ولا تخدش صفاءه.

ما أحوج البشرية اليوم إلى التوحيد، وقد نسي الناس ما خُلقوا لأجله!

ما أحوج البشرية اليوم إلى التخلص من مظاهر الشرك والكفر بأنواعه!

ما أحوج المسلمين اليوم إلى التعاون والتناصر فيما بينهم ضد عدوهم الذي يتربص بهم الدوائر، ويكيل لهم التهم ليل نهار!

ما أحوج المسلمين اليوم إلى تجديد روح الاتباع لإمام الهدى ﷺ، كما أمر تعالى بقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

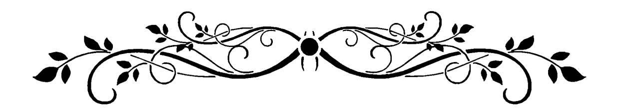
وما أحوج البشرية اليوم، والمسلمين ابتداءً، إلى إقامة دين الله، وتحكيم شرعه، الذي بات غريبًا في غابة الأنظمة العَلمانية، والشرائع الوضعية!

إن على أبناء هذه الدعوة المباركة، وأحفاد الإمامين المجدِّدَين، أن

يعوا جيدًا حقيقة دعوتهم، وأن يسلكوا المسلك الرشيد، الذي وصفه الله بقوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥]، وأن يتقدموا بمشروعهم الإيماني إلى العالم أجمع، مستفيدين من الوسائل الإعلامية الحديثة، وأن يطوروا أساليبهم في الحوار، واثقين أن الحق والعقل والفطرة تشهد لهم، وأنهم أسعد الناس بالحوار، وأحمدهم عاقبة.

والله غالب على أمره، والحمدُ لله ربِّ العالمين.





المسائل الأربع

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:



❁ الشَّرْح ❁

استهل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه هذا بالبسملة ـ بسم الله الرحمٰن الرحيم ـ، والبداءة بالبسملة دل على ثبوتها ومشروعيتها أدلة كثيرة منها:

١ ـ أن النبي ﷺ كان يبدأ بها مكاتيبه: فعندما كتب النبيُّ ﷺ إلى هرقل كتابًا قال فيه: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ**»(١)، ولما أراد النبي ﷺ أن يكتب صلح الحديبية أملى على الكاتب (**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**)، فقال مندوب قريش سهيل بن عمرو: أَمَّا الرَّحْمٰنُ، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٧)، ومسلم، رقم: (١٧٧٣)، من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٢٧٣١)، من حديث المسور بن مخرمة ومروان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومسلم، رقم: (١٧٨٤)، من حديث أنس.

٢ ـ أنها هدي الأنبياء السابقين، قال الله ﷿: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل: ٣٠]، فقد كان أنبياء الله يبدؤون مكاتيبهم بالبسملة، وقد قال الله لنبيِّه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فالسُّنَّة أن يبتدئ الإنسان مكاتيبه بالبسملة، وأن يبتدئ خطبه بالحمد لله، فإذا خطبت فابدأ بحمد الله، وإذا كتبت فابدأ بالبسملة، ولا بأس بالجمع بينهما.

٣ ـ ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بـ(بسم الله الرحمٰن الرحيم) فهو أقطع**»(١). وفي رواية: «**لا يبدأ فيه بذكر الله**»(٢)، وفي رواية: «**بحمد الله**»(٣). وهذه الأحاديث لا تخلو من مقال، ولكنها بمجموعها تحتمل، ولهذا تلقتها الأمة بالقَبول، فصاروا يبدؤون كتبهم بالبسملة.

(**بسم الله**): جار ومجرور، والجار والمجرور لا بد له عند النحاة من متعلَّق، قال العلماء: إن متعلَّـق «بسم» فعل محذوف مؤخر مناسب للمقام، فإذا أردت أن تَطْعم وقلت بسم الله، فالتقدير: «بسم الله آكل»، وإذا أردت أن تدخل بيتك وقلت بسم الله، فالتقدير: «بسم الله أدخل».

---

(١) رواه بهذا اللفظ عبد القادر الرهاوي في «الأربعين» عن أبي هريرة، وأخرجه الخطيب في «الجامع» (٢/ ٦٩)، والسبكي في «طبقات الشافعية» (١/ ٦). وقال الشيخ ابن باز: «جاء هذا الحديث من طريقين أو أكثر عند ابن حبان وغيره، وقد ضعفه بعض أهل العلم والأقرب أنه من باب الحسن لغيره» مجموع فتاوى ابن باز (٢٥/ ١٣٥).

(٢) أخرجه أحمد، رقم: (٨٧١٢)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه للمسند.

(٣) أخرجه أبو داود، رقم: (٤٨٤٠)، وصححه ابن حبان، رقم: (١).

فها هنا يكون التقدير «بسم الله أكتب» أو «بسم الله أصنف» أو «بسم الله أؤلف»، وبالنسبة للقارئ «بسم الله أقرأ».

واسم الله ﷻ اسم مبارك، ما كان في شيء إلا حلت فيه البركة، فإذا استعمله الإنسان مع الطعام بورك له في زاده، وطرد عنه الشيطان، وإذا استعمله الإنسان عند دخوله لبيته، فإن ذلك يطرد الشيطان ويمنعه من المبيت، وإذا استعمله الإنسان إذا أتى أهله حيل بين الشيطان وبين ما يقسم بينه وبين أهله من ذرية، فينبغي للمؤمن ألا يغيب عن باله، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾ [الرحمٰن: ٧٨].

والاسم عند النحاة: هو ما عيّن مسمَّاه؛ فالله ﷻ له الأسماء الحسنى، كما قال في غير موضع: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، خلافًا للجهمية الذين أنكروا أن يكون لله أسماء؛ فالله تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العُلى، فنثبت ما أثبت الرب لنفسه، ومن ذلك (الاسم)، وأما لفظ الجلالة «الله» فإنه أفضل الأسماء الحسنى على الإطلاق، وقيل: إنه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب؛ ولهذا نجد أن الأسماء الحسنى تحال إليه، كما في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣﴾ [الحشر: ٢٢، ٢٣]، فمرجع الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم الشريف وهو الله[١].

ولفظ (الله) ليس جامدًا؛ بل هو مشتق من: أَلَهَ يألهُ أُلُوهةً، والمراد بالألوهية: انجذاب القلب للمعبود محبة وتعظيمًا؛ فلهذا كان هذا الاسم الشريف جامعًا للأسماء الحسنى؛ لأن القلوب لا تجتمع إلا على من

---

(١) ينظر: جامع المسائل، لشيخ الإسلام (٤/ ٤١٤).

كانت له صفات الكمال ونعوت الجلال(١).

أما **(الرحمٰن والرحيم)**: فهما اسمان شريفان كريمان من أسماء الله الحسنى، ومعناهما متقارب إذ أن كلًّا منهما يدل على اتصاف الله تعالى ﷻ بصفة الرحمة، ولا ريب أن ربنا رحمٰن ورحيم، وأن من صفاته العلى صفة الرحمة، ورحمة ربنا ﷻ رحمة تليق به ليست كرحمة المخلوقين فيها ضعف ورقة؛ بل هي رحمة لائقة بجلاله وعظمته، رحمة حقيقية نثبتها لربنا ونرجو ثوابها.

الفروق بين الرحمٰن والرحيم:

الفرق الأول: قال بعض أهل العلم: أن الرحمٰن يدل على اتصاف الله تعالى بصفة الرحمة اتصافًا ذاتيًا، أما الرحيم يدل على اتصاف الله بصفة الرحمة اتصافًا فعليًا.

الفرق الثاني: أن الرحمٰن يدل على الرحمة العامة المتعلِّقة بعموم المخلوقين، والرحيم يدل على الرحمة الخاصة المتعلقة بالمؤمنين خاصة؛ فالرحمٰن يدل على الرحمة الواسعة، التي دل عليها قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، والرحيم يدل على الرحمة الواصلة التي تختص بالمؤمنين، قال ﷻ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

الفرق الثالث: أن الرحمٰن اسم لا يطلق إلا على الله ﷻ؛ لأنها تدل على الإطلاق والكمال المطلق، بينما اسم الرحيم يجوز أن يسمى به المخلوق، قال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].



---

(١) ينظر: بدائع الفوائد (١/ ٢٢).



❁ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(اعلمْ ـ رحمكَ اللهُ ـ أَنَّهُ يجبُ علينَا تَعَلُّمُ أربعِ مسائلَ؛

الأُولى: العِلْمُ؛ وهوَ معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّهِ، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ.

الثانية: العملُ به.

الثالثة: الدعوة إليه.

الرابعة: الصبر على الأذى فيه).

❁ الشَّرْح ❁

قوله: (اعلمْ ـ رحمكَ اللهُ ـ): ابتدأ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا اللفظ **(اعلم)** وهو صيغة أمر تحمل المخاطب على الانتباه، وقد جرى الشيخ على نسق القرآن، فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

ومراتب الإدراك ستة[1]:

أولًا: العلم، وتعريف العلم: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا. كقولك: وقعت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة.

ثانيًا: الجهل البسيط، وهو: عدم الإدراك بالكلية. كقولك: لا أعلم متى وقعت غزوة بدر.

ثالثًا: الجهل المركب، وهو: إدراك الشيء على خلاف ما هو

---

(١) ينظر: التحبير شرح التحرير (١/ ٢٥١، ٢٥٢)، شرح الكوكب المنير (١/ ٧٧).

عليه. كقولك: وقعت غزوة بدر في السنة الثالثة من الهجرة.

رابعًا: الظن، وهو: إدراك الشيء مع احتمال ضِدٍّ مرجوح. كظنك أن غزوة بدر وقعت في السنة الثانية من الهجرة مع نوع تردد.

خامسًا: الشك، وهو: إدراك الشيء مع احتمال ضِدٍّ مساوٍ. كترددك في وقوعها في الأجلين على حدٍّ سواء.

سادسًا: الوهم: وهو إدراك الشيء مع احتمال ضِدٍّ راجح. كظنك أن غزوة بدر وقعت في السنة الثالثة من الهجرة مع نوع تردد.

ويقسمون العلم أيضًا إلى قسمين:

القسم الأول: علم ضروري.

القسم الثاني: علم نظري.

فالعلم الضروري: هو الذي يكون إدراك العلم فيه بمقتضى الضرورة؛ إما ضرورة عقلية أو حسية. فمن الضرورة الحسية العلم بأن السماء فوقنا، والأرض تحتنا، والعقلية العلم بأن ١+١=٢؛ لأنها تدرك بالتفكير والحساب، فهذا يسمى عند العلماء بالضرورة العقلية.

ومن العلم الضروري ما ثبت بالتواتر؛ كالقرآن العظيم؛ لأن كتاب الله ﷻ محفوظ، منقول إلينا نقلًا متواترًا لا خلاف فيه، ولا يخرم منه حرف واحد.

ومنه الأحاديث المتواترة التي رواها جمع كثير يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة، عن مثلهم، وأسندوه إلى شيء محسوس؛ فالأحاديث المتواترة تفيد العلم الضروري القطعي.

وأما العلم النظري، فالمراد به: ما يحتاج إلى نظر واستدلال؛ ولهذا يحصل فيه خلاف بين أهل العلم، فتجد العلماء يختلفون في بعض

المسائل؛ كنواقض الوضوء، مثل: لحم الجزور، ومس الذكر، فيكون العلم بأحد الأمرين علمًا نظريًّا، لا علمًا ضروريًّا.

قوله: (رحمكَ اللهُ): وهذا دعاء للمخاطب بحصول الرحمة له من عند الله تعالى.

قوله: (أَنَّهُ يجبُ علينَا تَعَلُّمُ أربعِ مسائل): أفاد الشيخ أن الوارد ذكره من العلم الواجب تعلمه. و(المسألة)، تطلق عند العلماء على القضية من قضايا العلم، سميت بذلك؛ لأنه يجري فيها البحث والسؤال.

قوله: (الأُولى: العِلْمُ؛ وهوَ: معرفةُ اللهِ، ومعرفةُ نبيِّهِ، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ):

قوله: (الأُولى: العِلْمُ؛ وهوَ: معرفةُ اللهِ): أول المراتب العلم؛ لأن العلم مفتاح كل شيء، فأول ما يجب على المكلف هو العلم؛ لأنه لا فائدة من عمل بلا علم، فلا بد من العلم، وأشرف أنواع العلوم على الإطلاق: ما تضمَّن شرف المعلوم، فشرف العلم ينبني على شرف المعلوم، وأشرف معلوم هو الله سبحانه وبحمده؛ ولهذا كان أوجب الواجبات هو العلم بالله، وفسر العلم بأنه معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة؛ لكن ليس المراد المعرفة النظرية المجردة، بأن يُقر الإنسان بوجود الله، وببعثة نبيه ﷺ، وبأنه يوجد دين على وجه الأرض يقال له الإسلام، وإنما المقصود المعرفة التي تثمر الإيمان والاتباع، فذلك هو العلم المطلوب.

فالعلم بالله المقصود به: العلم به بمقتضى أسمائه وصفاته، المورث لطاعته وعبادته سبحانه وبحمده.

قوله: (ومعرفةُ نبيِّهِ): وهو العلم بشخص محمد بن عبد الله الذي يورث: تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع على لسانه، ليس مجرد العلم النظري أو التاريخي.

قوله: (ومعرفةُ دينِ الإسلامِ بالأدلةِ): وهو العلم بأن لله دينًا افترضه على البشر ليعبدوه، وأنه خلقهم لذلك، وأن ذلك الدين هو الذي شرعه لأنبيائه من لدن نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ. وهو دين الإسلام الذي أمر به الناس جميعًا.

فالإسلام له معنيان: معنى عام، ومعنى خاص:

الإسلام بالمعنى العام: وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص له من الشرك. وهو ما بعث الله به جميع أنبيائه ورسله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، فجميع أنبياء بني إسرائيل مسلمون، وكما قالت بلقيس ملكة سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤]، فدين الله على مر العصور هو الإسلام، ليس لله دين سواه.

وأما الإسلام بالمعنى الخاص: فهو ما بعث الله به محمدًا ﷺ من الهدى، ودين الحق، المتضمن للعقائد الصحيحة، والشرائع العادلة والأخلاق الرفيعة، والآداب العالية، الناسخ لما قبله من الأديان.

قوله: (بالأدلةِ)؛ أي: أن تكون هذه المعارف مقرونة بالأدلة، والدليل: هو ما يرشد إلى المدلول. فينبغي لنا معاشر المؤمنين أن ندرك

العلم بدليله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [محمد: ١٤]، من كان على بينة من ربه ليس كمن ﴿يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الملك: ٢٢]، أو على جري العادة، أو بحكم الوراثة، أو ما أشبه ذلك، فينبغي ألا تعقد على مسألة من المسائل إلا وقد فقهت دليلها؛ لكي تعبد الله على بينة.

والأدلة متنوعة منها:

الأدلة السمعية: فهي ما جاء عن الله تعالى أو عن أنبيائه، فما ثبت بكتاب الله أو في الصحيح عن رسول الله ﷺ، فهو دليل سمعي، يجب الصيرورة إليه، وتقديمه على كل شيء.

الأدلة العقلية: وذلك أن الله ﷻ فضلنا على سائر المخلوقات بهذه العقول، وجعل العقل من وسائل الوصول للعلم، نجد قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يس: ٦٨]، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٣]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

والله تعالى قد ضمَّن كتابه أدلة عقلية وإليكم هذا المثال: عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧] قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ)[1]، هاتان

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٤٨٥٨)، ومسلم، رقم: (٤٦٣).

الجملتان دليلان عقليان صريحان لا يُبقيان مجالًا لأي شبهة، ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور: ٣٥]، فلا هذا ولا ذاك. فالله خالقهم فهو المستحق للعبادة وحده.

أدلة حسية: وهي ما أودع الله تعالى في ملكوت السماوات والأرض، ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]؛ ولهذا نجد في كتاب الله: قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۝٥٨﴾ [الواقعة: ٥٨]، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۝٦٣﴾ [الواقعة: ٦٣]، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۝٦٨﴾ [الواقعة: ٦٨]، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۝٧١﴾ [الواقعة: ٧١].

أدلة فطرية: وهي ما جبل الله عليه النفس الإنسانية من الحق، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، ولأجل ذا حمل بعض العلماء قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢] على ميثاق الفطرة(١)، فقد أودع الله تعالى في القلب وفي النفس، الفطرة السليمة، وهي الدين القيم ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، دين الإسلام. فجميع الأدلة تتعاضد في الدلالة على الحق، فلا عذر لمبطل.

قوله: (الثانيةُ: العملُ بهِ): العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل.

لا بد من العمل لا يكفي مجرد العلم؛ لأن العلم حجة لك أو

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٠)، طبعة دار طيبة، شرح الطحاوية، ت: الأرناؤوط (١/ ٣٠٨).

عليك، فإن عملت به فهو حجة لك، وإن أهملته كان حجة عليك؛ ولهذا نجد في كتاب الله كثيرًا القرن بين العمل والإيمان: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النساء: ١٧٣]؛ فالعمل ثمرة العلم، وقد بعث الله نبيه محمد ﷺ بأمرين: بالهدى ودين الحق؛ فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق هو: العمل الصالح[١].

واعلم أن العمل يكون أحيانًا قلبيًّا، وأحيانًا يكون بدنيًّا، وأحيانًا يكون لسانيًّا، وأحيانًا يكون ماليًّا، وبعض الناس يتصور أن العمل يكون في حركة الأبدان فقط، كلا!؛ فالعمل أوسع من ذلك، فإذا أقمت في قلبك الرجاء والخوف والتوكل والمحبة والخشية والإنابة، فأنت في الحقيقة تعمل بعلمك؛ لأن هذه المذكورات أعمال قلوب، وأعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح.

ومن الأعمال:

أعمال بدنية: كالصلاة، والحج، وإماطة الأذى عن الطريق.

أعمال مالية: وهو ما يبذله الإنسان من زكاة وصدقة.

أعمال قولية: وهو ما يلفظ به اللسان من الذكر وتلاوة القرآن وغير ذلك.

قوله: (الثالثةُ: الدعوةُ إليهِ): من حصّل العلم واشتغل به، حمله ذلك على الدعوة إليه تلقائيًّا؛ لأن المؤمن كالزهرة يفوح أريجها ولا تُمسك؛ بل يخرج وينتشر حولها، وكذلك المؤمن علمه بدرجات متفاوتة، بحسب ما آتاه الله.

---

(١) ينظر: تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمٰن» (ص٣٣٥).

فالدعوة إلى الله ﷻ من لوازم العلم والعمل ومن الأمور التي تجب على كل مسلم بقدر ما آتاه الله؛ ولهذا قال الله ﷻ مخاطبًا نبيه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ﴾ [الشورى: ١٥]، فيجب على كل مؤمن أن يستصحب هذه المرتبة وهي الدعوة، لا يقولن قائل: الدعوة من خصائص هيئة كبار العلماء، أو من خصائص حملة الشهادات الكبرى! أو نحو ذلك؛ فالدعوة إلى الله واجب كل مؤمن فيما أعلمَه الله تعالى إياه وأوقفه عليه.

ولا بد أن يتأدب الداعية بالآداب القرآنية؛ بالحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وفضل الدعوة عظيم فإنه قد قال ﷺ لعلي يوم خيبر: «**لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»[(١)]، وقال: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»[(٢)]، وكذلك من دعا إلى ضلالة؛ فلهذا نجد أن الله تعالى يسمي هؤلاء أئمة، وهؤلاء أئمة، فأهل الإيمان: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، وأهل الضلالة: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ﴾ [القصص: ٤١].

قوله: (**الرابعةُ: الصبرُ علَى الأذى فيهِ**): من علم وعمل ودعا،

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٢٩٤٢)، ومسلم، رقم: (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم، رقم: (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

فلا بد أن يُبتلى؛ فلذلك عليه أن يوطن نفسه على الصبر، قال لقمان رَحِمَهُ اللهُ في مواعظه لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧]، فمن أمر ونهى ودعا، فليتوقع حصول الأذى القولي، والأذى المعنوي، فينبغي أن يوطن نفسه على الصبر فيما يدعو إليه، ولا يظن أنه إذا دعا إلى الله سيستقبل بالورود والرياحين، وتُفسح له المجالس؛ بل سيلحقه من الأذى والابتلاء بقدر إيمانه.

فعن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: قلت: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: «**الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ؛ فَالْأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ زِيدَ فِي بَلائِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ، وَمَا يَزَالُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»[1].

والصبر لغة: الحبس والمنع.

والمراد به: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي والسخط، والجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بدعوى الجاهلية.

ومنزلته في الدين عظيمة فهو كمنزلة الرأس من الجسد، وهو أنواع:

فمنه الصبر على طاعة الله.

ومنه الصبر عن معصية الله.

---

(١) أخرجه أحمد، رقم: (١٤٨١)، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: (١٤٣).

ومنه الصبر على أقدار الله المؤلمة.

ثم إنّ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن قرر المراتب الأربع، أتبع ذلك بالدليل فقال:



❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(والدليلُ قولُه تعالَى: بسم الله الرحمـن الرحيم ﴿وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ③﴾ [العصر: ١ ـ ٣]).

قالَ الشافعيُّ ـ رحمَهُ اللهُ تعالَى ـ: لوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هذه السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ).

❁ الشَّرْح ❁

قوله: (﴿وَٱلْعَصْرِ ①﴾): أقسم الله في مستهلِّها بالعصر وهو الدهر والزمان، وجواب القسم **قوله**: (﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ②﴾). والإنسان ها هنا جنس الإنسان بدليل الاستثناء بعد ذلك، فهو في خسار وبوار إلا من استثنى الله تعالى: في **قوله**: (﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾)؛ أي: صدَّقوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم، ونطقوا بألسنتهم، فلا بد أن يكون عملًا صالحًا والعمل الصالح هو ما وافق السُّنَّة، وما سواه فإنه لا يكون صالحًا.

وهاتان الجملتان: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، جمعتا بين الإخلاص والمتابعة؛ فالإيمان يدل على إخلاص العبادة لله تعالى، والعمل الصالح يدل على المتابعة.

قوله: (﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾)؛ أي: أوصى بعضهم بعضًا، فهي مفاعلة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالالتزام به والتمسك به، وما أحوج أهل الإيمان إلى التواصي بالحق؛ فإن المؤمن إذا رأى أن أخاه يشدّ أزره، قوي؛ ولهذا قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ㉙ هَـٰرُونَ أَخِى ㉚ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ

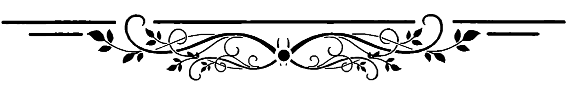
أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٥]، وفي هذا لفتة لطلبة العلم أن يتعاونوا فيما بينهم، ويتواصوْا بالحق، وتدارس العلم فيما بينهم.

قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾؛ أي: يصبر بعضهم بعضًا على ما يلقون في ذات الله، فمن تأمل في هذه السورة العظيمة وجد أنها دلت على المراتب الأربع السابقة.

قوله: (قالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ تعالَى): الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ولد في غزة ـ فك الله أسرها ونصر أهلها ـ، سنة ١٥٠هـ، وكانت وفاته سنة ٢٠٤هـ، وعلى قصر عمره رَحِمَهُ اللَّهُ فهو إمام متبوع من أئمة المسلمين.

قوله: (لوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هذه السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ): ليس مراده رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه السورة تغني عن بقية القرآن والسُّنَّة؛ بل المقصود بالحجة؛ يعني: حجة العبودية والاتباع. وأما تفاصيل الدين ومعرفة مفردات الشريعة فلا شك أن السورة لم تتضمنها، ولكن هذه السورة أصل عظيم في التوحيد والاتباع، والتواصي بالحق والصبر.





۞ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وقال البخاريُّ ـ رحمَهُ اللهُ تعالى ـ: بابٌ العلمُ قبلَ القولِ والعملِ.

والدليلُ قولُه تعالَى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، **فبدأ بالعلمِ قبلَ القولِ والعملِ).**

۞ الشَّرْح ۞

قوله: (وقال البخاريُّ ـ رحمَهُ اللهُ تعالى ـ): هو أمير المؤمنين في الحديث، وهو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، كانت ولادته في بخارى ـ وإليها ينسب ـ سنة ١٩٤هـ، ووفاته سنة ٢٥٦هـ، وهو والشافعي من أئمة الدين، الأول في الفقه، والثاني في الحديث.

قوله: (بابٌ العلمُ قبلَ القولِ والعملِ): قيل إن فقه الإمام البخاري في تراجمه، فلم يكن يخلط كلامه بكلام رسول الله ﷺ؛ بل يكتفي بتراجم يبوِّب فيها أبوابًا تدل على عميق فقهه رَحِمَهُ اللَّهُ، فمن ذلك قوله هنا: **(بابٌ: العلمُ قبلَ القولِ والعملِ).**

قوله: (والدليلُ قولُه تعالَى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾، فبدأ بالعلمِ قبلَ القولِ والعملِ): وهذا ملحظ لطيف، واستنباط دقيق، فأمره بالعلم قبل الاستغفار، مما يدل على البداءة بالعلم قبل القول والعمل.



❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(اِعْلَمْ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ ثلاثِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ، وَالْعَمَلُ بِهِنَّ:

الأولى: أنَّ اللهَ خَلَقنا ورَزَقَنا ولم يتركْنا هملًا؛ بل أرسلَ إلينا رسولًا فمنْ أطاعَهُ دخلَ الجنَّةَ ومنْ عصاهُ دخلَ النّارَ.

والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

الثانية: أنَّ اللهَ لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ في عبادتِه لا مَلَكٌ مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرْسَل، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨].

الثالثة: أنَّ مَنْ أطاعَ الرسولَ ووحَّدَ اللهَ لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كان أقْرَبَ قريبٍ. والدليلُ قوله تَعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]**)**.

▩ الشَّرْح ▩

قوله: (اعلمْ رحِمَكَ اللهُ: أنَّهُ يجبُ على كلِّ مسلم ومسلمة تَعَلُّمُ هذه الثلاث مسائل والعملُ بهنَّ): جزم الشيخ جزمًا أكيدًا بوجوب تعلم

هذه المسائل والعمل بهن، وهذا الجزم ناتج عن قوة اليقين ورسوخ العلم.

قوله: (الأولى: أنَّ اللهَ خَلَقنا ورَزَقَنا): وهذا أمر دلت عليه أنواع الأدلة:

فأما الأدلة السمعية فكثيرة جدًّا: قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦].

وقال ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢]، وقال ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢]، وقال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦].

وأما الدليل العقلي فقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور: ٣٥]، ففي هاتين الجملتين إبطالٌ لنظرية الصدفة ولنظرية الطبيعة؛ ذلك أن من الملاحدة يزعمون أن هذا الكون وجد صدفة، ومنهم من يقول أوجدته الطبيعة، وهذا إنكار للأدلة الضرورية التي جاءت بها الرسل، الدالة على أن الله تعالى خلق آدم وخلق منه زوجه، وبث منهما رجالًا كثيرًا ونساء.

ويرد على القائلين بالصدفة أن الصدفة عمياء بكماء صماء لا يمكن أن يحال عليها. ويرد على القائلين بالطبيعة أن الشيء لا يُنشئ نفسه، فقول الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾، ينسف هذه النظريات الإلحادية، ومنها نظرية النشوء والترقي التي تنسب إلى داروين، وهي أن الإنسان كان قردًا وتطور حتى وصل إلى هذا الحال! فهذه دعاوى باطلة معارضة لما أخبر الله به في كتابه، وجاءت به جميع رسله، من أن الله خلق آدم من قبضة طين ونفخة من روحه فكان الخلق.

وليس مراد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ **بقوله: (أنَّ اللهَ خَلَقنا ورَزَقَنا)**، إثبات الخلق والرِّزق، فإن هذا أمر تدركه الفطر، وإنما مراده ما بعده.

قوله: (ولم يتركْنا هملًا؛ بل أرسلَ إلينا رسولًا): أي: أن مقتضى حكمته سبحانه وبحمده أن لا يخلقنا ويرزقنا ثم يدعنا، هملًا؛ بل خلقنا لحكمة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، فلا يمكن أن يكون الله عَزَّ وَجَلَّ بث هذه البشرية في الأرض لأجل أن تأكل وتشرب، وتنكح وتنام وتستيقظ، وتموت ثم ينتهي الأمر، هذا لا يتفق مع حكمته؛ فلهذا قال: **(بل أرسلَ إلينا رسولًا)**: **(رسولًا)** هنا يمكن أن يكون اسم جنس، فإنه قد أرسل إلى كل أمة رسولًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، ويمكن أن يكون الرسول في حقنا هو خاتمهم وأفضلهم صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: (فمنْ أطاعَهُ دخلَ الجنَّةَ ومنْ عصاهُ دخلَ النّارَ: والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾): هذا المنطوق، وأما المفهوم؛ فمن أطاعه فإن الله تعالى يكرمه ويثيبه ويأجره ويدخله الجنة، كما جاء صريحًا في البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٧٢٨٠).

قوله: الثانية: (أنَّ اللهَ لا يرضى أن يُشْرك معهُ أحدٌ في عبادتِه لا مَلَكٌ مُقرَّب ولا نبيٌّ مُرْسَل، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾).

المساجد هي مواضع السجود، أو فعله؛ فالسجود لا يكون إلا لله ﷻ، ولا يجوز صرف عبادة لغير الله. وقد جاء في الحديث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١)، فهذه قواعد عظام، ومباني كبار لا بد أن تستقر في نفس المؤمن.

قوله: الثالثة: (أنَّ مَنْ أطاعَ الرسولَ ووحَّدَ اللهَ لا يجوزُ لهُ مُوالاةُ مَنْ حادَّ اللهَ ورسولَهُ ولو كان أقْرَبَ قريبٍ. والدليلُ قوله تَعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾).

هذا هو مشروع شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو الولاء والبراء؛ فإنه أراد أن يحمل الناس على توحيد رب العالمين والبراءة من الشرك والمشركين، فأعلمهم أن ثمرة الأمرين الأوليين هو أن يواليَ في الله ويعادي في الله؛ لأن من استقر في قلبه توحيد رب العالمين واتباع سيد المرسلين فلا بد أن يثمر في قلبه محبة المؤمنين ومعاداة الكافرين، ثم استدل بقول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (٢٩٨٥).

﴿ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. لا يمكن أن يوجد ذلك! بشهادة رب العالمين، لا يمكن أن يوجد قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر ويجتمع مع إيمانهم ذلك موادَّة لمن حاد الله ورسوله، ومعنى ﴿حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ أي: وقف في حد يقابل حد الله ورسوله، فهو مناوئ لله ورسوله، فلا يمكن أن يجتمع في قوم إيمان بالله واليوم الآخر ومودة للمحادين لله ورسوله أبدًا؛ فإن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله.

ويدل عليه **قوله: (ولو كان أقْرَبَ قريبٍ، والدليل قوله تعالى:** ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾)، فإذا تزاحم في القلب موالاة الله ورسوله، مع موالاة أعداء الله ورسوله، فإن الأمر محسوم؛ فالمؤمن الحق يقدِّم محبة الله ورسوله كما قال تعالى في آية براءة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]، إذن لا يجتمعان.

ومن أعجب ما جاء عندما خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ ـ في الفترة التي كان فيها مشركًا ـ (حَتّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ أُمّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَمّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللهِ ﷺ طَوَتْهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا بُنَيّةُ مَا أَدْرِي أَرَغِبْت بِي عَنْ هَذَا الْفِرَاشِ أَمْ رَغِبْت بِهِ عَنّي؟ قَالَت: بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَنْتَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ نَجِسٌ وَلَمْ أُحِبّ أَنْ تَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: وَاللهِ لَقَدْ أَصَابَك يَا بُنَيّةُ بَعْدِي شَرّ)[١].

---

(١) مغازي الواقدي (٢/ ٧٩٢)، سيرة ابن هشام، ت: السقا (٢/٣٩٦)، وقال =

تقول هذا لأبيها؛ لتبيِّن له أن حقيقة الإيمان يعيد ترتيب الأولويات، وأن الإيمان يقدم ويؤخر.

ومن شواهد ما جرى لأصحاب نبينا ﷺ ما وقع لمصعب بن عمير رضي الله عنه، فإنه إِثر يوم بدر أُسر أخوه أبو عزيز بن عمير، فأسره أحد الأنصار، فمر مصعب وقد أوثقه الأنصاري، فلما رأى أخاه استبشر فمر مصعب، فقال للأنصاري: أوثق عليه يدك فإن أمه ذات مال! فقال مذكرًا إياه، ظن لم يعرفه: أنا أخوك، قال: إنه أخي دونك[1].

فهذا يدلنا على عظم هذه الخصلة وهي الموالاة، الحب في الله، والبغض في الله، وهي أوثق عرى الإيمان؛ فلهذا أثنى الله على أهلها، فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾، جعلنا الله وإياكم منهم.



= الشيخ الألباني في تخريج أحاديث فقه السيرة (ص٣٧٣): رواه ابن إسحاق بدون إسناد.

(١) مغازي الواقدي (١/ ١٤٠)، سيرة ابن هشام، ت: السقا (١/ ٦٤٦)، وقال السهيلي في الروض الأنف، ت: السلامي: «فَأَمَّا أَبُو عَزِيزٍ فَاسْمُهُ زُرَارَةُ» (٥/ ١١٨).

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(اعلَمْ ـ أرشدَكَ اللهُ لطاعتِه ـ أنَّ الحنيفيةَ: مِلَّةَ إبراهيمَ، أنْ تعبدَ اللهَ وحدَهُ مخلصًا له الدِّين، وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ الناس وخلَقهم لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومعنى يعبدون: يوحِّدونِ، وأعظمُ ما أَمرَ اللهُ به التوحيدَ وهو: إفرادُ اللهِ بالعبادة وأعظمُ ما نهى عنه الشركُ؛ وهو دعوةُ غيرِهِ معهُ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]).

❁ **الشَّرح** ❁

كرر الشيخ صيغة الأمر **(اعلم)**: ليؤخذ الأمر مأخذ الجد والاحتفاء.

ثم دعا لسامعه **بقوله: (أرشدَكَ اللهُ لطاعتِه)**: والرشد: ضد الغي والسفه، وهو: الاستقامة والصواب. والمقصود بالطاعة: الموافقة؛ موافقة الأمر فيما يجب؛ بامتثاله، وفيما يكره؛ باجتنابه.

الحنيفية

قوله: (أنَّ الحنيفيةَ: مِلَّةَ إبراهيمَ، أنْ تعبدَ اللهَ): جملة مكونة من (أنَّ)، واسمها وخبرها، (الحنيفية)، هي اسم أنّ، (ومِلَّةَ إبراهيمَ)، ليست خبرها، وإنما هي بدل من الحنيفية (أنْ تعبدَ اللهَ)، الجملة المؤولة من أنْ وما دخلت عليه هي خبر (أنّ).

والحنيفية مأخوذة من الحنف وهو: الميل؛ فالمقصود بالحنيفية:

الميل عن طريق الشرك إلى طريق التوحيد، ومنه تسمي العرب الأحنف للرجل الذي في مشيه ميل، فمعنى الحنيف: أي: المائل عن طريق الضلال إلى طريق الهدى[١]، وقد وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بهذا الوصف في غير ما موضع، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣]؛ فالحنيفية هي: ملة إبراهيم عليه السلام، وبها بعث محمد عليه الصلاة والسلام، فقد بُعث عليه الصلاة والسلام بالحنيفية السمحة.

والملة المقصود بها: الطريقة والسيرة.

وأما إبراهيم عليه السلام فهو أحد أولي العزم من الرسل، وهو أفضل الأنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام، وهو إمام الموحدين في الأولين، وقد اتخذه الله تعالى خليلًا، كما أن الله اتخذ نبينا محمد ﷺ خليلًا، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]. والخلة هي أعلى المحبة[٢]، وما ذاك إلّا لأن إبراهيم عليه السلام قد محّض العبادة لله ربِّ العالمين فلم يبقَ في قلبه نزعةٌ وميلٌ إلى سوى الله عز وجل، وقد ابتلاه الله عز وجل بمواقف عظيمة أثبتت كمال توحيده لله تعالى، ومن ذلك ما جرى بينه وبين قومه حينما واجههم جميعًا وحاجّهم تلك المحاجة العظيمة حتى وصل به الأمر أن حطم آلهتهم وجعلهم جذاذًا حتى اجتمعوا عليه وقالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء: ٦٢]. ثم إنهم وضعوا له

---

(١) قال ابن القيم: «والحنيف الْمقبل على الله الْمُعرض عَمَّا سواهُ، وَمن فسره بالمائل فَلم يفسره بِنَفس مَوْضُوع اللَّفْظ وَإِنَّمَا فسره بِلَازِم الْمَعْنى؛ فَإِن الحنف هُوَ الإقبال، وَمن أقبل على شَيْء مَال عَن غَيره، والحنف فِي الرِّجلَيْن هُوَ إقبال إِحْدَاهمَا على الْأُخْرَى وَيلْزمهُ ميلها عَن جِهَتهَا»، جلاء الأفهام (ص٢٦٩).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٢٩٨).

نارًا عظيمة وألقوه فيها وهو لم يحد عن توحيده لله ﷻ، فلما هوى وتحته ألسنة النار عرض له جبريل فقال له: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى[١]. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: (كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ)[٢]. فامرؤ هذا حاله في هذه المواقف العصيبة لا شك أنه قد قام قي قلبه من توحيد رب العالمين ما لا يبلغه وصف.

ومن دلائل توحيده عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى ابتلاه بحب قلبه وثمرة فؤاده وهو ابنه الذي أتاه على حين كِبَر، فأراه الله تعالى في المنام أنه يذبحه، ورؤيا الأنبياء حق. ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وما كان يستشيره في ذلك بل كان يتلطف في إخباره، فما تدري أتعجب من الأب أم تعجب من الابن: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: ١٠٢]. قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصافات: ١٠٣]؛ أي: كما يصنع من يريد أن يذبح الشاة بالشاة ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]، هكذا يكون التوحيد بأن يفرغ القلب من كل شبهة تخالف خبر الله ورسوله ومن كل شهوة تخالف أمر الله ورسوله، فهذا هو القلب السليم؛ فلذلك كان إبراهيم عليه السلام يدعو ربه ﷻ بأن يأتيه بقلب سليم فقال: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩]، قال ابن القيم: «وقد اختلفت عبارات الناس فى معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذى

---

(١) رواه الطبري موقوفًا على الحسن، ورواه البيهقي عن جماعة من التابعين موقوفًا، واحتج به الإمام أحمد كما نقله القاضي في طبقات الحنابلة (١/ ٤١٥).

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٤٥٦٤).

قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره»[١].

فصار إبراهيم عليه السلام مثلًا وعَلَمًا على التوحيد؛ ولذلك أمر الله تعالى نبيه باتباعه وأحاله على ملته، وصار كل من أتى بعد إبراهيم عليه السلام ينتحله وينتمي إليه، ولكن ذلك لا يكون إلا لمن وافقه حقًّا وصدقًا؛ ولذا أنكر ربنا عز وجل دعوى أهل الكتاب فقال: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وقال أيضًا: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقد رد الله على أهل الكتاب دعوى الإبراهيمية، وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [آل عمران: ٦٥].

فإبراهيم عليه السلام هو إمام الموحدين، واليهود والنصارى يحاولون الانتماء إلى إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم عليه السلام منهم براء، بسبب ما أحدثوه من كفر وشرك، وبسبب رغبتهم عن ملته، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ﴾ [البقرة: ١٣٠].

قال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ وغيره: «رَغِبَ عَنْ مِلَّتِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَاتَّخَذُوا الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ بِدْعَةً لَيْسَتْ مِنَ اللهِ، وَتَرَكُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ؛ يَعْنِي: الْإِسْلَامَ حَنِيفًا، كَذَلِكَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ»[٢]؛ فالموافقون لملة إبراهيم عليه السلام هم المسلمون، وأما اليهود

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٧)، وينظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٤١)، وطريق الهجرتين وباب السعادتين (ص٣٧).
(٢) ينظر: تفسير الطبري (٢/ ٥٧٨)، ط. هجر.

والنصارى فقد حادوا عن ملة إبراهيم بسبب إفسادهم في دينهم وإدخالهم البدع العقدية على ملتهم.

فالحنيفية ملة إبراهيم كما عرَّفها المؤلف **بقوله: (أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين)**: بأن تفرد الله بالعبادة وحده، ومعنى الإخلاص: التنقية، مخلصًا له الدين؛ أي: مخلصًا له العبادة.

قوله: (وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾)؛ فالله تعالى خلق الخليقة لعبادته، وهذا الاستثناء يسمى استثناء مفرغ من أعم الأحوال[1]، مثل قولنا: (لا إله إلا الله)؛ لأنه لا يحصل التوحيد التام إلا بالنفي والإثبات، فقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ هذا نفي، ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ هذا إثبات، وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما يعبدون؛ أي: يوحِّدون[2]؛ لأنها لا تكون عبادة حقًّا إلا بتوحيد. فمن عبد الله وعبد معه غيره فهو مشرك، ومن لم يعبد الله عز وجل فهو كافر مستكبر، ومن عبد الله فهو الموحد الحنيف.

ما هي العبادة؟.

العبادة لها معنى من حيث اللغة، ومعنى من حيث الاصطلاح:

أما العبادة من حيث اللغة فمعناها: التذلل والخضوع، تقول العرب: بعير معبَّد؛ أي: مذلَّل، ويسمِّيه الناس الذَّلول لكونه مذلَّلًا للركوب، وتقول العرب أيضًا: طريق معبَّد؛ أي: مهيأ للسير عليه[3].

---

(١) ينظر: القول المفيد على كتاب التوحيد (١/ ٢٥).

(٢) ينظر: معالم التنزيل (٥/ ٦٧٥).

(٣) ينظر: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية (٢/٥٠٣)، ومقاييس اللغة (٤/ ٢٠٦).

وأما في الاصطلاح: فلها معنى من حيث حقيقتها ومن حيث مفرداتها:

أما حقيقة العبادة: فهي كمال المحبة مع كمال الخضوع(١)؛ أي: أن يكون العبد في قلبه محبة تامة وخضوع تام، فمن قام في قلبه هذان المعنيان، فهو عابد حقًّا.

وأما من حيث مفرداتها: فأجمع تعريف لها، ما عرَّفها به شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بأنها: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة»(٢).

هذه هي العبادة التي خلقنا الله لها، فالله تعالى ما خلقنا لكي نعمر الأرض بالأكل والشرب والنكاح والتكاثر والنوم واليقظة والموت، ثم ينتهي الأمر، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، خلق الله الخليقة لعبادته، فهذه هي حقيقة العبادة التي أمر الله بها جميع أنبيائه، فلا يظن ظان أن هذا هو فقط دين محمد عليه الصلاة والسلام أو دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فحسب؛ كلا؛ ولذلك:

قوله: (وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ الناس وخلَقهم لها: قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ﴾)، هذا هو مضمون رسالات الأنبياء جميعًا، وهي عبادة الله وحده دون ما سواه، ومما يدل على هذه الجمعية قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، أهل الإيمان يقرؤون

---

(١) ينظر: منهاج السُّنَّة النبوية (٢/٤٤٨)، والجواب الكافي (ص٢٢٨).
(٢) ينظر: العبودية (ص٤٤)، ومجموع الفتاوى (١٠/١٤٩).

التاريخ قراءة إيمانية، فيرتبون التاريخ من لدن آدم عليه السلام مرورًا بنوح عليه السلام عبر أنبياء الله كما يصنع ابن جرير وابن كثير وغيرهما، وأما الماديون والغربيون ومن سار على شاكلتهم فإنهم يقرؤون التاريخ قراءة سطحية فيقولون: التاريخ القديم، والتاريخ الوسيط، والتاريخ المعاصر، ويَصُفُّون الرسالات النبوية مصافَّ الدول والأمم والممالك المتعاقبة، وكأنما هي مظهر من مظاهر التاريخ، بينما نحن أهل الإسلام نرى أن التاريخ هو هذه السلسلة من هذه الحلقات المتصلة من أنبياء الله عز وجل، فنرى أن صلاح البشرية حينما تقترب من خط النبوة، وأن انحراف البشرية حينما تفترق عن خط النبوة.

والمقصود أن العبادة تتناول جميع أمور الحياة، وليست العبادة هي ما تحيط به الجدران الأربعة وما يغطيه السقف في المساجد فقط! كلا، الحياة كلها مضمار للعبادة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فما من صغيرة ولا كبيرة ولا شاذة ولا فاذة إلا وتندرج ضمن العبادة، لمن أصلح الله قلبه وأنار بصيرته؛ فالمؤمن اللبيب هو الذي يحوِّل عاداته إلى عبادات، والغافل هو الذي يقلب عباداته إلى عادات، بحيث تكون جري العادة وتقليدًا وميراثًا.

والعبادة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: عبادة كونية: وهي ما دلَّ عليها المعنى اللغوي.

القسم الثاني: عبادة شرعية: وهي ما دلَّ عليها المعنى الشرعي.

فالعبادة الكونية تشمل جميع المخلوقات لا يخرج عنها أحد، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤)﴾ [مريم: ٩٣، ٩٤]، فكل من يدب على وجه الأرض فهو عبد لله شاء أم أبى؛ لأنه خاضع لنواميس الكون لا يخرج عن

قدر الله، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فجميع المخلوقات بهذا الاعتبار داخلة في العبودية الكونية العامة.

وأما العبودية الشرعية الخاصة، فهي عبودية المؤمنين التي تعني الموافقة والطاعة والمتابعة لدين الله ﷻ.

ويمكن أن نضيف قسمًا وهو عبودية خاصة الخاصة: وهي التي يختص بها أنبياء الله؛ لأنهم أكمل الناس عبادة.

قوله: (وأعظمُ ما أَمرَ اللهُ به التوحيدَ وهو: إفرادُ الله بالعبادة وأعظمُ ما نهى عنه الشركُ؛ وهو دعوةُ غيرِهِ معهُ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ﴾).

تعريف التوحيد وأقسامه

التوحيد أعظم ما أمر الله به، وله ما بعده، وبدونه لا قيمة لشيء.

التوحيد في اللغة: جعل الشيء واحدًا، والمراد به هنا: اعتقاد الله واحدًا؛ ولذلك كان التوحيد **بالمعنى الاصطلاحي**: إفراد الله ﷻ بالربوبية وبالعبادة وبالأسماء والصفات.

والتوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: توحيد الربوبية: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله ﷻ هو الخالق لا خالق سواه، وهو المالك لا مالك سواه، وهو المدبِّر لا مدبِّر سواه. وبعبارة أخرى: إفراد الله بالخلق والملك والتدبير؛ لأن هذه الثلاثة عليها مدار الربوبية، وبقية صفات الربوبية ترجع إلى هذه الثلاثة. وتوحيد الربوبية قد فطر عليه جميع الخلائق؛ الإنس والجن والطير والبهائم.

ولم يكن مخالفو الرسل ينازعون في توحيد الربوبية؛ بل كانوا

يقرُّون جميعًا بأن الله تعالى هو الخالق والمالك والمدبر، ولا يعرف أحد من البشر أنكر توحيد الربوبية إلا أفراد قلائل شواذ، ومن أشهر من عُرف بتظاهره بإنكار الربوبية فرعون حينما قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣]؟!! لكنه قال ذلك بلسانه تكبرًا وتجبرًا، فقد أخبر الله عنه وعن قومه بأنهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال له موسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ولم يكن مشركو العرب الذين بُعث فيهم النبي ﷺ ينكرون توحيد الربوبية، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]، وكانوا يذكرون اسم الله عز وجل في أمور كثيرة لكنهم يفسدون ذلك بالشرك.

القسم الثاني: توحيد الألوهية: ويسمى أيضًا توحيد العبادة، والمقصود به: إفراد الله بالعبادة، بمعنى ألَّا يُصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله عز وجل، سواء كانت تلك العبادة عبادة قلبية: كالخوف، والرجاء، والمحبة، والتوكل، أو كانت عبادة لسانية: كالدعاء، والذكر، وتلاوة القرآن، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أو كانت عبادة مالية: كالصدقة والزكاة، أو كانت عبادة بدنية: كالصلاة، والحج، والجهاد في سبيل الله، وإماطة الأذى عن الطريق.

وهذا هو ما بعث الله به أنبياءه جميعًا؛ فإن مهمة الأنبياء تعبيد الناس لرب العالمين ونفي الشركاء عن الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]؛ فلا بد من الجمع بين الأمرين: عبادة الله، واجتناب الطاغوت، معًا حتى يتحقق التوحيد.

ومعنى كلمة التوحيد **(لا إلٰه إلا الله)**؛ أي: لا معبود بحق إلا الله، ففيها نفي كل معبود سوى الله، وإفراد الألوهية وحصرها في الله ﷻ، وهذا النوع من التوحيد هو معترك الصراع وحلبة النزاع بين الأنبياء وأقوامهم، فقد كان الأنبياء يبادئون أقوامهم بجملة واحدة: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، قالها نوح، وهود، وصالح، وشعيب، عليهم الصلاة والسلام، كما ذكر الله ذلك في سورة الأعراف والشعراء إلى أن انتهت النوبة إلى محمد ﷺ فقالها صريحة مدوية: «**قولوا: لا إلٰه إلا الله**»، فهذه القضية، وهي توحيد الألوهية أو توحيد العبادة، هي مفترق الطرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك.

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات وهو: أن يعتقد العبد أن الله ﷻ له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، لا يشاركه ولا يماثله أحد في أسمائه وصفاته. وقد جرى الخُلفُ في هذا القسم بين أهل القبلة ـ أي: المنتسبين إلى الإسلام ـ؛ فقد نازع في هذه القضية ـ على درجات متفاوتة ـ المخالفون من أهل التعطيل ومن أهل التمثيل، وهدى الله أهل الإيمان والسُّنَّة إلى ما اختلف فيه من الحق بإذنه؛ فصاروا يثبتون ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه من غير تعطيل، ولا تحريف، ومن غير تمثيل ولا تكييف، وينفون عن الله تعالى ما نفاه عن نفسه في كتابه أو ما نفاه عنه نبيه ﷺ.

وتختلف تقسيمات العلماء للتوحيد:

فمن العلماء من يقسم التوحيد إلى هذه الأقسام الثلاثة السابقة.

ومنهم من يقسمه تقسيمًا آخر، لا يعارض التقسيم الثلاثي، فيقول التوحيد **نوعان**[(١)]:

النوع الأول: توحيد المعرفة والإثبات: ويشمل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

النوع الثاني: توحيد القصد والطلب: وهو توحيد الألوهية أو توحيد العبادة.

ولا تعارض بين التقسيم الثنائي والتقسيم الثلاثي، وزيادة في الإيضاح فتوحيد «**المعرفة والإثبات**» يسمَّى أيضًا التوحيد العلمي، والتوحيد الخبري، والتوحيد النظري وكلها أسماء لمسمًّى واحد، أما توحيد «**القصد والطلب**»، فإنه يسمَّى التوحيد العملي، وتوحيد العبادة، وتوحيد الألوهية وكلها أسماء لمسمًّى واحد؛ **فالنوع الأول**: دلت عليه سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، **والنوع الثاني**: دلت عليه سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾؛ ولأجل ذا كان نبينا ﷺ يحتفي بهاتين السورتين وتشرع قراءتهما في صلوات عدة كركعتي الطواف، وركعتي الفجر، وفي الوتر، وكذلك في أوراد الصباح والمساء وأذكار النوم، وما ذلك إلا لعظيم فضل هاتين السورتين، وتضمنهما للتوحيد بجميع أنواعه.

تعريف الشرك وأنواعه

قوله: (وأعظمُ ما نهى عنه الشركُ؛ وهو دعوةُ غيرِهِ معهُ): قد

---

(١) ينظر: الصفدية (٢/٢٢٨)، ومدارج السالكين (٣/٤٤٩ ـ ٤٥٠).

جعله ﷺ أعظم الظلم كما في الصَّحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣]، ولَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «**لَيْسَ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ:** ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣]»(٢)؛ فالظلم المحذور هو: الشرك بالله، قال تعالى مبينًا شؤم عاقبته: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [الحج: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [النساء: ٤٨]، وفي آية أخرى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝١١٦﴾ [النساء: ١١٦].

فإن الله لا يقبل من مشرك عملًا، والشرك يهدر الإنسانية، ويهدم العبودية، ويحبط العمل، ويبيح الدم والمال؛ قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]، ففي الدنيا لا يُقبل من مشرك عملٌ، قال تعالى في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٤٤٧٧)، ومسلم، رقم: (٨٦).

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٣٤٢٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) أخرجه مسلم، رقم: (٢٩٨٥).

وأما في الآخرة فإن الله يحبط جميع الأعمال، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

فيجب أن يكون عمدة دعوتنا: الدعوة إلى التوحيد، والتحذير من الشرك، فقبل أن نحذرهم من الشهوات والمعاصي نحذرهم من الشرك بالله؛ لأنه إذا صلحت قلوبهم تخلصوا من تبعات ذلك من المنكرات والمعاصي.

والظلم: هو النقص، وقد قال جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ**»[1]، فمن وحَّد الله توحيدًا تامًّا، دخل الجنة تلقائيًّا، ومن وقع في توحيده شيءٌ من الكبائر فهو تحت المشيئة والإرادة إن شاء الله عفا عنه ثم أدخله الجنة، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه، لكن مآله إلى الجنة؛ لأن عنده أصل التوحيد.

وأما من أشرك بالله فلا ينفعه أي عمل صالح، حتى لو قام بأعمال خيرية في الدنيا فقد تنفعه في الدنيا بتوسعة في الرزق والصحة في البدن لكنها تحبط في الآخرة.

والشرك نوعان:

النوع الأول: شرك أكبر.

النوع الثاني: شرك أصغر.

فالشرك الأكبر: مساواة غير الله بالله فيما يختص به الله في الربوبية

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (٩٣).

أو في الألوهية أو في الأسماء والصفات. فقد يقع الشرك في الربوبية بأن يعتقد خالقًا مع الله، أو مالكًا مع الله، أو رازقًا مع الله، أو مدبرًا مع الله. والشرك في الألوهية: هو أن يعبد مع الله غير الله. والشرك في الأسماء والصفات: أن يعتقد أحدًا يتصف بصفات مماثلة لصفات الله. وفرعون قد وقع في الشرك بجميع أنواعه والكفر بجميع أنواعه فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ [الشعراء: ٢٩].

وأما الشرك الأصغر: فيتعلق ببعض الألفاظ والأعمال التي لا تبلغ مبلغ الشرك الأكبر، فلذلك يعرِّفه بعض العلماء بأنه: ما لم يبلغ حد الشرك الأكبر.

الشرك الأكبر يفترق عن الشرك الأصغر في عدة أمور:

الفرق الأول: الشرك الأكبر مُخرِج عن الملة، والشرك الأصغر لا يُخرج عن الملة.

الفرق الثاني: الشرك الأكبر لا يغفره الله تعالى أبدًا، والشرك الأصغر مختلف فيه، فمن العلماء من يقول: يغفر كالكبائر، ومنهم من يقول: لا يغفر ولكن يدخل في الموازنة بين الحسنات والسيئات(١).

الفرق الثالث: الشرك الأكبر صاحبه خالد مخلد في النار مع فرعون وقارون وهامان، والشرك الأصغر لا يخلد صاحبه في النار، ومآله إلى الجنة إذا عذب بمقدار ما معه من شرك أصغر.

---

(١) ينظر: تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء (١/ ٣٦٠ ـ ٣٦٢)، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، المحقق: عبد العزيز بن محمد الخليفة، ط: مكتبة الرشد، سنة النشر: ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، الفروع وتصحيح الفروع (٦/ ٦٦).

ومن صور الشرك الأصغر:

ما يتعلق ببعض الألفاظ: كالحلف بغير الله، أو قول: ما شاء الله وشئت، أو مطرنا بنَوء كذا وكذا.

ما يتعلق ببعض الأعمال: كمن اعتقد شيئًا سببًا، وليس بسبب؛ كالذي يربط الحلقة والخيط، أو يستعمل التمائم والرقى.

قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾**)**.



❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثلاثةُ التي يجبُ على الإنسانِ معرفتُها؟ فقُلْ: معرفةُ العبدِ رَبَّهُ، ودينَهُ، ونبيَّهُ محمدًا ﷺ.

فإذا قيلَ لكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فقلْ: رَبِّيَ اللهُ الذي ربّاني وربَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ، وهو معبودي ليس لي معبودٌ سواهُ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، وكلُّ ما سِوَى الله عالَمٌ وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ.

فإذَا قيلَ لكَ: بِمَ عرفتَ ربَّك؟ فقُل: بآياتِه ومخلوقاتِه؛ ومِنْ آياتِه الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ، ومِنْ مخلوقاتِه السمٰواتُ السَّبْعُ والأَرَضُونَ السَّبع ومَنْ فيهنَّ وما بينهما، والدليلُ قولُه تَعَالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصلت: ٣٧]، وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]).

الشَّرْح

الأصول الثلاثة

قيل: إن هذا هو مبدأ الأصول الثلاثة، وما تقدم مضاف إليها،

وأيًّا كان فالكلام يماثل بعضه بعضًا. وقد سلك الشيخ مسلك السؤال والجواب، وطريقة السؤال والجواب تنشِّط ذهن السامع وتُذهب عنه البلادة.

قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثلاثةُ التي يجبُ على الإنسانِ معرفتُها؟). والأصول: جمع أصل، وهو ما يُبنى عليه غيره، ويقابله الفرع.

فينبغي لطالب العلم أن يضبط الأصول والقواعد، ثم بعد ذلك يشتغل بالفروع والمفردات، وإياك يا طالب العلم أن تعكس، فإن مِن طلبة العلم مَن يشتغل بجمع والتقاط المسائل المنثورات قبل أن يضبط الأصول والقواعد.

وهذه الأصول لم يؤصلها الشيخ من تلقاء نفسه، وإنما اقتبسها من حديث نبوي صحيح، وهو حديث سؤال الميت. فعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾، **قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ**: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]»[(١)]؛ ولهذا عدَّ الشيخ هذه الأسئلة التي يسأل عنها الميت أصولًا.

وليس مراده أن يعرف الإنسان صيغة السؤال والجواب؛ ولكن أن تستقر في قلبه.

قوله: (فقُلْ: معرِفةُ العبدِ رَبَّهُ، ودينَهُ، ونبيَّهُ محمدًا ﷺ): فيجب

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (١٣٦٩)، ومسلم، رقم: (٢٨٧١)، واللفظ له، وقد روي هذا المعنى عن غيره من الصحابة مرفوعًا.

علينا أن نعرف ربنا بمقتضى أسمائه وصفاته؛ **فأعظم طرق معرفة الله**: طريق السمع، وهو ما أثبته الله في كتابه وما أثبته النبي ﷺ في سُنَّته، من صفات الكمال، ونعوت الجلال.

الطريق الثاني لمعرفة الرب: عن طريق مخلوقاته وما بث في الكون كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف: ١٠٩]، إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو إلى إمعان الفكر والنظر والتدبر؛ فإن من سرَّح طرفهُ في هذا الكون وجدَ من الدلائل العظيمة ما يعمر قلبه بالإيمان ويزكيه ويطيبه.

الطريق الثالث لمعرفة الرب ﷻ: النظر في آياته الشرعية؛ أي: تدبر كتاب الله ﷻ، يلقيه الله في قلب العبد من الفتوحات الإيمانية؛ فإن الله تعالى قد وكل بكل إنسان ملكًا، ووكل به قرينًا من الجن؛ فالملك يفتح له من الفتوحات الإيمانية، كما أن قرينه الجني يفتح عليه باب الشك والريبة والحزن.

الأصل الثاني: معرفة الدين: وهو دين الإسلام، لا دين سواه، فليس لله دينٌ إلا دين الإسلام، ليس لله دينٌ يسمَّى النصرانية ولا اليهودية، ذلك أن النصرانية هي ما آل إليه دين عيسى عليه السلام بعد تحريف الرهبان، واليهودية هي ما آل إليه دين موسى عليه السلام بعد تحريف الأحبار، أما ما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام فهو الإسلام، ولكنه الإسلام بالمعنى العام. فدين الله واحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، فدين الإسلام الذي بعث به جميع الأنبياء، الذي يعني

بالمعنى العام: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص له من الشرك.

ثم **بالمعنى الخاص**: وهو التزام ما جاء به محمد ﷺ، من العقائد الصحيحة، والشرائع العادلة، والأخلاق القويمة، والآداب العالية؛ ولذلك تجب معرفته ـ كما قال المؤلف ـ كما يجب التفقه في الدين؛ فإن النبي ﷺ قال: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[1].

الأصل الثالث: معرفة النبي ﷺ؛ لأنه بُعث إلينا وإلى جميع الخلق، قال تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يعلن في العالمين: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فهذا إعلان عالمي للناس جميعًا، إنسهم وجنَّهم، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، كتابيهم ومشركهم، دعوة إلى الإيمان بمحمد ﷺ واتباعه.

هذه هي الأصول الثلاثة التي يُسأل عنها العبد في قبره.

الأصل الأول

تعريف الرَّب والمعبود سبحانه وتعالى

قوله: (فإذا قيلَ لكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فقلْ: رَبِّيَ اللهُ الذي ربّاني وربَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ): هذا تفريعٌ عن المسألة الأولى، أراد الشيخ أن يعرِّف الرب بأصل المعنى اللغوي الدال على التربية، والتربية من التنشئة شيئًا فشيئًا، رويدًا رويدًا.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٧١)، ومسلم، رقم: (١٠٣٧)، من حديث معاوية رضي الله عنه مرفوعًا.

قوله: (فقلْ: رَبِّيَ اللهُ الذي ربّاني): رباني؛ أي: خلقني، وأعدني، وأمدَّني، ورزقني.

قوله: (ورَبَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ): العالمين: جمعُ عالم، والعالم: هو كل من سوى الله من الآدميين، والملائكة، والبهائم، والطير، والدواب، والحشرات، وما نرى، وما لا نرى.

قوله: (وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ): ما أحسن هذا القرن والربط!، فهو سبحانه الرب، ولما كان ربًّا كان مستحقًّا للعبادة؛ إذ كيف يعبد غيره وهو الذي ربَّانا وربَّى جميع العالمين بنعمه؟!

قوله: (والدليلُ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾): استدل رحمه الله بأول آية في سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ الحمد: هو وصف الله بصفات الكمال ونعوت الجلال. ومن العلماء من يعرِّف الحمد بأنه: الثناء على الله.

والتحقيق أنه إن تكرر الحمد صار ثناءً[(١)]، والدليل حديث الفاتحة، وفيه: «**إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾** [الفاتحة: ٣]، **قَالَ اللهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**»[(٢)].

قوله: (وكلُّ ما سِوَى اللهِ عالَمٌ، وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَم): الشيخ يلقن طالب العلم الجواب الصحيح المطابق للواقع. ثم أردف ذلك بسؤال ثالث.

---

(١) ينظر: الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص٨٨).

(٢) أخرجه مسلم، رقم: (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

طرق معرفة الله تعالى

قوله: (فإِذَا قيلَ لكَ: بِمَ عرفْتَ ربَّك؟): ذلك لمزيد التحقيق؛ أي: فما الأدوات التي دلتك وساقتك إلى معرفة ربك؟

قوله: (فقُل: بآياتِه ومخلوقاتِه): والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يُرد بذلك حصر الطرائق، وإنما أراد أن يُبين أوضحها وأدناها وأسهلها تناولًا.

والآيات: جمع آية، والآية هي العلامة.

وآيات الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: آيات كونية.

القسم الثاني: آيات شرعية.

الآيات الكونية: وهي ما بث الله في هذا الكون، من العلامات الدالة على قدرته، مثل: السماوات، والأرضين، والشمس، والقمر، والجبال، والشجر، والدواب.

الآيات الشرعية: وهي ما أنزل الله بين دفتي المصحف، من هذه الآيات المحكمة، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ ولهذا يمكن أن نقول: ومخلوقاته من باب عطف الخاص على العام؛ لأن المخلوقات في الواقع نوع من الآيات.

قوله: (ومِنْ آياتِه الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ، ومِنْ مخلوقاتِه السمٰواتُ السَّبْعُ والأَرْضُونَ السَّبع ومَنْ فيهنَّ وما بينهما): لعل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختار أن يُمثل للآيات بما يقع فيه نوع تكرار وتجدد؛ ولذلك ذكر الليل والنهار والشمس والقمر؛ لأنها أحوال تتوالى فيحصل فيها الإعلام؛ لكثرة ورودها وتجددها وتعاقبها. ومثل للمخلوقات بأشياء ثوابت.

قوله: (ومِنْ مخلوقاتِه السمٰواتُ السَّبْعُ والأَرْضُونَ السَّبع ومَنْ فيهنَّ): وإلا فإن الكل يصدق عليه أنه آيات الله، ويصدق عليه أنه مخلوقات، ولعله رَحِمَهُ ٱللَّهُ لحظ في المجموعة الأولى أن فيها معنى التجدد والتعاقب، وفي الثانية معنى الثبات والدوام؛ ثم ساق الدليل.

قوله: (والدليلُ قولُه تَعَالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾): فمن نظر في هذه الآيات أحدثت في قلبه معرفة بخالقها، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: ٦ ـ ١٦]؛ فينبغي للمؤمن الحصيف أن يستعمل هذه الآيات في إذكاء إيمانه وتقوية دينه؛ فيستفيد من هذه الآيات الموجودة في الكون لتقوية الإيمان، ولا تمر عليه مرورًا عابرًا، لا؛ بل ينتفع بها، وقال تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، وذلك من الناس من كانوا يعبدون الشمس، ومنهم من كانوا يعبدون القمر، قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾؛ لأن السجود علامة العبادة والإخلاص لله تعالى الذي خلقهن، فخالق هذه المخلوقات أحق بالعبادة، كيف يعبد المخلوق ويترك الخالق؟!

قوله: (وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾).

قوله: (وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾): فهذه الأيام الستة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧].

قوله: (﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾)؛ أي: من بعد أن فرغ الله من خلق السماوات والأرض علا فوق عرشه ﷻ علوًّا يليق بجلاله وعظمته.

قوله: (﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾)؛ أي: أن الله ﷻ يجعل الليل يغشى النهار ويغطيه.

قوله: (﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾): في حركه دائمة وتتابع مستمر، (حثيثًا)؛ أي: سريعًا كأنما يطرده.

قوله: (﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾): لما كان ﷻ له الخلق فهو الجدير الحقيق بالأمر سواء كان أمرًا كونيًّا، أم أمرًا شرعيًّا؛ فهل يليق أن يكون الخلق له والأمر لغيره؟! هذا لا يستقيم بل لما كان الخلق له كان الأمر له.

قوله: (﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾): البركة: معناها النماء والزيادة، ومثل هذا التعبير لا يكون إلا في حق الله ﷻ(١).



(١) كما ذكر ذلك ابن القيم في بدائع الفوائد (٢/ ١٨٥).

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(والرَّبُّ هو المعبودُ، والدليلُ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، **قالَ ابنُ كثيرٍ رحِمَهُ اللهُ تعالى: الخالقُ لهذه الأشياءِ هو المستحقُّ للعبادةِ).**

❁ الشَّرح ❁

قوله: (والرَّبُّ هو المعبودُ): لم يرد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يعرِّف الرَّبَّ بأنه المعبود، وإنما مراده: والرب هو المستحق للعبادة؛ أي: لما كان ربًّا خالقًا مالكًا مدبرًا، كان هو المستحق للعبادة؛ فإن المعبود هو معنى **(المألوه)**.

والدليل على ذلك أول أمر ورد في كتاب الله، **بقوله**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾: هذا دليل على أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد العبودية، وأن توحيد العبودية متضمن لتوحيد الربوبية، فمن أقر بأن الله تعالى هو الرب الخالق المالك؛ فإنَّ من لازم ذلك أن يوحده بالعبادة، وهذه طريقة القرآن في إلزام المشركين بتوحيد الله ﷻ. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾؛ أي: يحصل لكم وقاية.

قوله: (﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾)؛ أي: هذه الأرض جعلها مهادًا موطَّأة للسير عليها.

قوله: (﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾): سقفًا مبنيًّا كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وهي بناء محكم.

قوله: (﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾): نزول ماء يقابله خروج نبات، حركات متقابلة تدل على سعة خلق الله ﷻ، فإذا كان الأمر كذلك وأنتم مقرُّون بذلك، فلا يستقيم أن تجعلوا لله أندادًا.

قوله: (﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾): الأنداد: جمع ند: وهو النظير والمثيل والشبيه، وما قد سبق لأجل هذا.

قوله: (**قالَ ابنُ كثيرٍ ـ رحِمَهُ اللهُ تعالى ـ**): وهو عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، مفسر، محدث، فقيه.

قوله: (**الخالقُ لهذه الأشياءِ هو المستحقُّ للعبادةِ**)[1]: فهذه من طرق القرآن الواضحة الملزمة للمخالف، وهو إثبات توحيد العبادة بالإقرار بتوحيد الربوبية.



---

(١) لم أعثر على كلام ابن كثير بهذا النص، ولعله أراد المعنى، قال في تفسير هذه الآية: «ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار، وساكنيها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يُعبد وحده ولا يُشرك به غيره». ينظر: تفسير ابن كثير، ت: سلامة (١/ ١٩٤). ثم وقفت على قول الشيخ محمد بن إبراهيم في شرحه على ثلاثة الأصول (ص١١١)، قال: «والظاهر أنها في تأريخه»، وقد نقل الشيخ المحقق قول ابن كثير.

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

(وأنواعُ العبادةِ التي أَمَرَ اللهُ بها: مثلُ الإسلامِ، والإيمانِ، والإحسانِ؛ وَمِنْهَا الدعاءُ، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكلُ، والرغبةُ، والرهبةُ، والخشوعُ، والخَشيةُ، والإنابةُ، والاستعانةُ، والاستعاذةُ، والاستغاثةُ، والذَّبْحُ، والنذرُ).

❁ الشَّرْح ❁

قوله: (وأنواعُ العبادةِ التي أَمَرَ اللهُ بها: مثلُ الإسلامِ، والإيمانِ، والإحسانِ): الدين يشمل هذه المراتب الثلاث: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وسوف يأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ فيما نستقبل من كلام المصنف مزيد بيان لهذه الألفاظ الشريفة، وبيان العلاقة بينها من عموم وخصوص، لكن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ ذكر بعض أنواع العبادة.

أنواع العبادات القلبية

قوله: (وَمِنْهَا الدعاءُ، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكلُ، والرغبةُ، والرهبةُ، والخشوعُ، والخَشيةُ، والإنابةُ، والاستعانةُ، والاستعاذةُ، والاستغاثةُ، والذَّبْحُ، والنذرُ): عدَّ المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أربعة عشر نوعًا، معظمها عبادات قلبية؛ لأن العبادات القلبية أشرف أنواع العبادات على الإطلاق، فإن القلب ملك الجسد، والأعضاء له جنود، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده، كما قال نبينا ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ**

أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ»[1]، والمضغة؛ أي: بقدر ما يمضغ الماضغ؛ صغيرة بحجم قطعة اللحم. فالقلب هو بيت الرب في العبد، كما أن الكعبة هي بيت الرب في الأرض؛ فالقلب أشرف ما فيه، فينبغي أن يحتوي أشرف ما عنده، وأشرف ما يمكن أن يكون عند العبد: هو العلم بالله بمقتضى أسمائه وصفاته، وأن يتحرك هذا القلب لأداء وظيفته التي خلقها الله له، فللقلب وظيفتان:

وظيفة حسية مادية: وهي ضخ الدم إلى الأعضاء، كما أن وظيفة العين الإبصار، ووظيفة الأذن السمع، ووظيفة اليد التناول، ووظيفة القدم السعي.

وظيفة معنوية: هي العلم بالله، ومعرفته ومحبته وخشيته والتوكل عليه والرغبة إليه؛ فلهذا كان الموفق من عباد الله من يجعل قلبه مستودعًا لهذه المعاني الشريفة، فإذا كان لديك في منزلك جواهر ولآلئ ووثائق وأشياء كريمة، فإنك تضعها في أشرف وأوثق موضع في البيت، لا تضعها في الفناء أو بيت الخلاء.

فلا يليق بك أيها المؤمن أن تجعل قلبك مستودعًا للجهالات والشهوات والشبهات والغفلات والحقد والغل. كم من القلوب ما يسرح فيه الشيطان جيئة وذهابًا، ويكون وقودًا للحقد والغل وسوء الظن؟!، اعمُرْ قلبك بما خلقه الله من أجله، من العلم به ومحبته وخشيته، فتلك هي العبادة الحقيقية. فإذا أحسن قلبك أداء وظيفته، انقادت له الجوارح، وخَفَّتْ إلى الطاعات، وهان عليها مفارقة الشهوات، وأحست بطعم

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٥٢)، ومسلم، رقم: (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعًا.

الحياة ووجدت معناها الحقيقي. ولهذا كان الصالحون من عباد الله يعتنون بقلوبهم قبل عنايتهم بأعمالهم، يصلحون قلوبهم: أولًا بالعلم النافع حتى تكون ناصعة نقية لا يكون لله تعالى شرك فيها، ثم يتبعونها بالعمل الصالح ثانيًا، وهذه العبادات العظيمة التي أجملها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، سيذكرها واحدة واحدة.

قوله: (وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا، كُلُّهَا للهِ تَعَالَى؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨]): ابتدأ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأجلِّ هذه العبادات وأبينها في الدلالة على العبودية، ألا وهو الدعاء.

قوله: (﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾): المساجد تطلق على مواضع السجود؛ كبيوت الله، وعلى آلة السجود التي هي أعضاء السجود السبعة التي يسجد عليها المؤمن.

وعبَّر بالسجود عن بقية الصلاة؛ لأنه من أشرف أركانها، ولما كان شريفًا معبرًا عن كمال العبودية لله، كان هو الموضع المناسب لدعاء رب العالمين، فأقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد، حيث يضع الإنسان أشرف ما فيه على الأرض؛ خضعانًا لله عَزَّ وَجَلَّ؛ ففي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ** عَزَّ وَجَلَّ، **وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»[١]، قمن؛ يعني: حري أن يستجاب لكم، فلهذا قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾، فيجب أن يصرف الدعاء لله وحده، فمن دعا غير الله فيما

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

لا يقدر عليه إلا الله، فقد تلطخ بالشرك الأعظم المخرج عن الملة.

قوله: (فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ، فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧]).

هذا هو الدليل الثاني، **وقوله:** ﴿إِلَٰهًا﴾، نكرة في سياق الشرط، والقاعدة: «أن النكرة إذا جاءت في سياق الشرط فإنها تدل على العموم»؛ أي: أيُّ إلٰه، وإطلاق الإلٰه على ما سوى الله ﷻ من باب حكاية الحال والواقع، وإلا فإنه لا يستحق الألوهية إلا الله وحده: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ﴾ [الأنبياء: ٤٣]، سماها الله آلهة، لكنها آلهة بغير حق؛ فالإلٰه بحق: هو الله وحده.

وقوله: (﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾): هذه الجملة تسمى عند العلماء «صفة كاشفة»، وليست قيدًا، فليس المراد أن نوعًا من الآلهة عليه برهان، ونوعًا من الآلهة ليس عليه برهان! كلا فلا يوجد برهان على ألوهية إلٰه سوى الله ﷻ.

قوله: (﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ﴾): هذه الجملة منطوية على معنى التهديد والوعيد، بدليل قوله: (﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾)، والفلاح هو: الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب؛ لذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾: لأن مآل الكافر إلى خسر، مآله أن يكون في الدرك الأسفل من النار.

فدلت هاتان الآيتان على وجوب توحيد الله تعالى بالدعاء وعدم صرفه لغير الله تعالى.

الدعاء: أقسامه وصوره

ثنَّى الشيخ بذكر دليل من السُّنَّة، **بقوله: (وَفِي الْحَدِيثِ: «الْدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ»**[(١)])، والواقع أن هذا الحديث فيه ضعف، وأصح منه إسنادًا قول النبي ﷺ: **«الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»**[(٢)]، ويغني عنه بحمد الله...

قوله: (وَالْدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠])، فسمَّى الله تعالى الدعاء عبادة، فلم يقل: إن الذين يستكبرون عن دعائي، فدل ذلك على أن الدعاء هو العبادة؛ بل إنه في الحقيقة لب العبادة، وذلك أن حال الدعاء يدل على افتقار العبد إلى خالقه، واطراحه بين يديه، وشعوره بكمال غنى الله تعالى، وافتقاره واضطراره إليه؛ فلأجْلِ ذا كان الدعاء هو العبادة، وكان صرف الدعاء لغير الله شركًا أعظم، فإذا رأيت من يدعو غير الله فاعلم أن قلبه معطوب، ما الذي حمل هذا الإنسان أن يَدَعَ الله الذي بيده الضر، والنفع، والمنع، والإعطاء، والعز، والذل، والغنى، والفقر، والصحة، والمرض، ويلتفت إلى غيره؟! لا شك أن هذا خلل عظيم وداء وبيل.

---

(١) أخرجه الترمذي، رقم: (٣٣٧١)، من حديث أنس بن مالك مرفوعًا، وقال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ لَهِيعَةَ». وضعفه الألباني، ضعيف الجامع الصغير (٣٠٠٣).

(٢) أخرجه أبو داود، رقم: (١٤٤٩)، والترمذي، رقم: (٢٩٦٩)، وابن ماجه، رقم: (٣٨٢٨)، وقال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وصحَّحه ابن حبان في صحيحه، رقم: (٨٩٠) والحاكم في مستدركه، رقم: (١٨٠٨)، وقال الحافظ في فتح الباري: أخرجه أصحاب السنن بسند جيد (١/٤٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود ـ الأم ـ (٥/٢١٩)، رقم: (١٣٢٩)، والأرناؤوط في تحقيق سنن أبي داود، رقم: (٢/٦٠٣).

وللأسف، فإن الشيطان قد أضل فئامًا من بني آدم فحملهم على دعاء غير الله، وزين لهم ذلك؛ فصاروا يتخذون الأصنام على هيئات متنوعة، ويزعمون أنها وسائط بينهم وبين الله ﷻ.

وأول ما ظهر ذلك في قوم نوح، فإن قوم نوح كانوا فيما مضى على التوحيد، وكان بين آدم ونوح عشرة قرون، وخلال هذه القرون المتطاولة زين الشيطان لهم تعظيم الصالحين من المتقدمين؛ ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا، وقال للناس: هؤلاء لهم جاه عند الله ومنزلة فلو أنكم ذهبتم إلى المواضع التي كانوا يجلسون فيها ونصبتم فيها أنصابًا حتى إذا رأيتموها ذكرتموهم فنشَّطكم ذلك على العبادة. وهذا مدخل لطيف، فإن الشيطان لا يأتي الناس مباشرة، قائلًا: أشركوا بالله!، وإنما يتلطف في تسويق باطله. فلما اندرس ذلك الجيل وجاء جيل بعده أتى الشيطان إليهم، وقال: هؤلاء لهم جاه عند الله فادعوهم لكي يتحقق ما تريدون، فدعوهم من دون الله فوقعوا في الشرك الأعظم، فبعث الله نوحًا عليه السلام لردهم إلى التوحيد، ثم إن هذه الأصنام بعدما طمرها الطوفان، عاود الشيطان الكَرة، فأتى عمرو بن لحي الخزاعي ـ أول من أدخل الشرك في العرب ـ في المنام وقال له: ائت جُدة تجد أصنامًا معدة، وادع إليها العرب تجب، فذهب إلى الموضع الذي ذكر، وكشف عن هذه الأصنام وبثها في الناس، فعاد الناس إلى عبادة غير الله ﷻ(١).

الدعاء من أعظم مراتب العبادة فيجب أن يخلص العبد دعاءه لله رب العالمين، وألا يلتفت إلى غير الله، لكن ينبغي أن نعلم أن الدعاء الذي هو فيصل التفرقة بين التوحيد وبين الشرك: هو أن يدعو العبد ربه

---

(١) ينظر: مختصر سيرة الرسول ﷺ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص٧٢).

فيما لا يقدر عليه إلا هو، فإن صرفه لله، فقد سلم من الشرك، وإن دعا غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فقد وقع في الشرك الأعظم الذي لا يغفره الله، كأن يدعو ميتًا، أو يدعو غائبًا، أو يدعو حاضرًا فيما لا يقدر عليه، **هذه ثلاثة أنواع**:

النوع الأول: أن يدعو ميتًا، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

النوع الثاني: أن يدعو غائبًا غير موجود، لا يسمع دعاءه؛ لأنه بمعنى الأول.

النوع الثالث: أن يدعو حاضرًا لكن ليس من شأنه ذلك، كأن يقول له: يا فلان ارزقني، يا فلان اشفني، فهو لا يملك ذلك، قال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧].

فهذه الصور الثلاث صور مُخرجة من التوحيد مدخلة في الشرك، أما إن دعا غير الله فيما يقدر عليه ذلك الغير، فهذا ليس بشرك، فإذا دعا واحدًا من الناس في أمر من الأمور التي يقدر عليها فلا حرج، كما لو قال لرجل بين يديه طعام: يا فلان أطعمني، لم يكن شركًا.

والدعاء نوعان: **النوع الأول**: **دعاء المسألة**: وهو طلب حصول الحاجات، وتحقيق الرغبات، فهذا كثير في بني آدم أن يدعو الإنسان بالرزق، بالصحة، بالذرية، بالرفعة.

النوع الثاني: **دعاء العبادة**، وهو أن يتقرب لله ﷻ بما أوجب عليه من الطاعات، يرجو بذلك ثوابه ويخشى عقابه، أو أن يتملق إلٰهه ومعبوده بحمده وبالثناء عليه؛ **فهو صورتان**:

الصورة الأولى: أن يمتثل أمر الله ويجتنب نهيه مستصحبًا أنه يرجو

بذلك أن يبلغه جنته، أو أن يصرف عنه عذابه، أو أن يصلح حاله ويدفع عنه السوء، فهذا وإن لم يدعُ بمسألة فهو في دعاء عبادة؛ لأنه يعلم أن الله تعالى نصب هذه العبادات سببًا موصلًا إلى الحياة الطيبة في الدنيا وإلى الفوز بالجنة في الآخرة، فسلك هذه الأسباب.

الصورة الثانية: أن يُثني على الله تعالى بما هو أهله من صفات الكمال ونعوت الجلال كما كان النبي ﷺ يقوم في صلاة الليل فيقول: **«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ حَقٌّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ»**[1]، يناجي ربه، ويثني عليه بما هو أهله: هذا دعاء عبادة، وقد قال ربنا ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وينبغي للداعي أن يدعو الله تعالى بالاسم المناسب للطلب؛ فإذا كنت تريد من الله تعالى أن يعفو عنك، فلا يستقيم أن تقول: يا ذا البطش الشديد اعف عني! ولكن قل: اللَّهُمَّ إنك عفو تحب العفو فاعفُ عني، وإذا أردت من الله الرزق، تقول: يا رزاق ارزقني... وهكذا فاختر الاسم المناسب للطلب المناسب.

وقد أنعم الله علينا بتسعة وتسعين اسمًا يمكن إدراكها واستخلاصها من نصوص الكتاب والسُّنَّة لكي ندعو الله تعالى بها؛ فالدعاء عبادة من أجلِّ العبادات لمن تذوَّقه ووفِّق إليه حتى أن من يدعو الله ﷻ من العارفين بالله ﷻ، يجد لذة ونعيمًا في مناجاة ربه في الأسحار وفي السجدات، ويتبين لنا سوء حال كثير من الناس الذين ابتلوا بدعاء

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (١١٢٠)، ومسلم، رقم: (٧٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

غير الله، حيث زين لهم الشيطان عن طريق مشايخ السوء وسدنة الأموات المنتفعين بها أن ينصبوا القباب والمشاهد على هذه القبور، ويغروا بهؤلاء العوام بدعائها وترك دعاء الله ﷻ، وقد قال ﷺ: **«لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعَاءِ»**(١). وقال: **«فما من عبد يدعو الله في الأرض دعوة إلا أعطاه بها أحد ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها، وإما أن يدَّخرها له أحوج ما يكون إليها فلا يضيع على الله دعاء»**.

وقد قيل:

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

الآدمي إذا دعوته مرة، مرتين، تبرَّم منك وتضايق. والرب بعكس ذلك، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»**(٢)، وفي لفظ لأحمد: **«مَنْ لَمْ يَدْعُ اللهَ، غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ»**(٣).



---

(١) أخرجه الترمذي، رقم: (٣٣٧٠) من حديث أبي هريرة مرفوعًا، وصححه ابن حبان في صحيحه، رقم: (٨٧٠)، والحاكم في المستدرك، رقم: (١٨٠١)، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الأدب المفرد، رقم: (٧١٢)، ومحققو مسند أحمد، ط. الرسالة، رقم: (١٤/ ٣٦٠).

(٢) أخرجه الترمذي، رقم: (٣٣٧٣)، وابن ماجه، رقم: (٣٨٢٧)، وفي إسناده الخوزي قال الحافظ في فتح الباري: «مختلف فيه، ضعفه ابن معين وقواه أبو زرعة» (١١/ ٩٥)، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد، رقم: (ص٢٤٦)، وفي الصحيحة (٦/ ٣٢٣)، رقم: (٢٦٥٤)، وضعفه محققو مسند أحمد، ط. الرسالة (١٥/ ٤٤٨).

(٣) أخرجه أحمد، رقم: (٩٧١٩)، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: وهذا إسناد لا بأس به (٧/ ١٥٤)، وضعفه محققو مسند أحمد، ط. الرسالة (١٥/ ٤٤٨).

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وَدَلِيلُ الْخَوْفِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿...فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله: ﴿...وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُوعِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣].

وَدَلِيلُ الْإِنَابَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا﴾ [الزمر: ٥٤].

وَدَلِيلُ الِاسْتِعَانَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥]. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ...».

وَدَلِيلُ الِاسْتِعَاذَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ [الفَلَق: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾﴾ [الناس: ١].

وَدَلِيلُ الِاسْتِغَاثَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

وَدَلِيلُ الذَّبحِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ...».

وَدَلِيلُ النَّذْرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٧]).

الشَّرْح

الخوف وأنواعه

قوله: (وَدَلِيلُ الْخَوْفِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾): (الخوف): توقع مكروه عن أمارة أو علامة مظنونة أو معلومة، وضد الخوف: الأمن. والخوف عبادة، والدليل على أن الخوف عبادة ما استدل به المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ وهو قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾، فقد جعل ذلك شرطًا في الإيمان، وأول هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾، ومعنى ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾: أي: يخوفكم بأوليائه.

والخوف أنواع:

النوع الأول: الخوف الطبيعي: هو ما جَبَلَ الله تعالى عليه الآدميين من الخوف من الأمور الضارة: كالخوف من السبع والحية والنار والعدو؛ وهو يقع لكل الناس، حتى أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ألقى العصا وانقلبت ثعبانًا: ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ [القصص: ٣١]، فهذا خوف طبيعي ركَّبه الله تعالى في بنية ابن آدم؛ لدوام سلامته وحفظ الجنس الإنساني، ولو لم يكن عند الإنسان خوف لهلك الناس

منذ القدم؛ لأن الخوف يحمل ابن آدم توقي ما يضره، وهذا نوع مباح لا يلام عليه صاحبه.

النوع الثاني: الخوف المحرَّم: وهو ما منعك من فعل واجب، أو حملك على الوقوع في محرم؛ فهذا الخوف خوف محرم لكنه لا يبلغ مبلغ الشرك.

مثال: وجب الجهاد على المسلمين، واستنفرهم الإمام، وقد قال النبي ﷺ: «**وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا**»[1]، فمنع الخوف بعض آحاد المسلمين من القيام بهذا الواجب، فهذا الخوف مذموم؛ لأنه حال بينه وبين فعل ما أوجب الله تعالى عليه؛ ولهذا حذر الله عباده، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن: ١٤]، لما قعدوا عن الجهاد خوفًا على أزواجهم وأولادهم.

النوع الثالث: خوف العبادة: ويسمى أيضًا خوف السر؛ لأن محله القلب لا يطلع عليه إلا العليم بالأسرار، وهو أن يخاف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فمن وقع منه ذلك، فقد وقع في الشرك الأعظم، كأن يخاف من جن أو مخلوق أن يصيبه بشيء لا يملكه ولا يستطيعه؛ فهذا الخوف خوف ينافي التوحيد؛ فلا يجوز صرفه لغير الله ﷻ. ويجب على الإنسان أن يعلم أنه لا يأتي بالحسنات إلا الله ولا يصرف السيئات إلا الله ﷻ، فمن خاف غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فقد أشرك.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والقدر الواجب من الخوف، ما حمل عَلَى أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد عَلَى ذلك بحيث صار باعثًا للنفوس عَلَى التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (١٨٣٤)، ومسلم، رقم: (١٣٥٣)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

المكروهات، والتبسط في فضول المباحات، كان ذلك فضلًا محمودًا، فإن تزايد عَلَى ذلك بأن أورث مرضًا أو موتًا أو همًّا لازمًا بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله ﷻ، لم يكن ذلك محمودًا»[١]؛ فالخوف المطلوب هو الخوف المحمود، الذي يحجزك عن محارم الله؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما نقله عنه تلميذه ابن القيم: «الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله»[٢]، وما زاد عن ذلك فلا حاجة لك به.

وبيان ذلك أنك تحتاج حصة من الخوف في قلبك تكون رادعًا لك عن غشيان الحرام، فإذا تحقق ذلك فحسن، فإن زاد قليلًا وحملك على مزيد توق من المشتبهات والمكروهات، فهذا نور على نور، لكن إن تزايد ذلك الخوف بحيث أفسد عليك عيشك، وأقضَّ مضجعك، وصرت لا تهنأ بعيش؛ فعليك أن تتخفف منه؛ لأنه ليس من هدي النبي ﷺ؛ بل الواقع هو حالة نفسيه غير مرادة شرعًا، فبعض الناس الذين يدمنون قراءة المواعظ والزواجر ربما يتضاعف عندهم هذا الشعور حتى يسبب لهم قلقًا وأرقًا وبلبلة وتشويشًا إلى درجة أنه يعطل عليهم مصالحهم الدينية والدنيوية؛ فلا يهنأ بعيش.

ونبينا ﷺ ـ وهو سيد الخائفين بأبي هو وأمي ﷺ ـ كان أطيب الناس عيشًا وأهنأهم مجلسًا.

قوله: (ودليلُ الرَّجاءِ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾).

---

(١) التخويف من النار، لابن رجب (ص٢٨)، مكتبة دار البيان، وهو ضمن مجموع رسائل ابن رجب (٤/ ١١٢).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٥١١).

حقيقة الرجاء وأنواعه

حقيقة الرجاء: أنه ظن وانفعال يقوم في القلب يقتضي حصول ما فيه مسرة؛ فالرجاء هو الأمل؛ أن يأمل الإنسان حصول شيء محبوب.

والرجاء عبادة، والدليل على كون الرجاء عبادة قول الله ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾، وقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾: يدل على أن الرجاء الصادق ليس بالأماني لا بد من العمل.

والعمل الصالح ما جمع وصفين:

الوصف الأول: الإخلاص لله.

الوصف الثاني: المتابعة لرسول الله.

قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾: فدل على أن رجاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك.

والرجاء نوعان: رجاء عبادة ورجاء مباح:

فرجاء العبادة لا يجوز صرفه لغير الله؛ لأنه رجاء السر؛ وهو أن يتعلق القلب بالمرجو في حصول منفعة أو دفع مضرة:

فإن كان ذلك الأمر لا يقدر عليه إلا الله؛ فلا يجوز صرفه لغير الله.

أما إن كان ذلك الأمر مما يقدر عليه الغير فلا حرج فيه، ولا بأس بأن يطلب من الغير. فإذا قلت لصاحبك: أرجوك أعطني الكتاب، هذا ليس رجاءً شركيًّا.

وأهل التحقيق وأهل التوحيد البالغ يفحصون رجاءهم، حتى إذا طلبوا من غير الله ﷻ أمرًا ليتحقق على أيديهم، لم يفارقهم شعور بأن مسبب الأسباب هو الله ﷻ؛ فإذا ذهب مثلًا إلى طبيب، لا يجد قلبه

معلقًا بشخص هذا الطبيب، وإنما يقوم في قلبه أنه سبب ساقه الله تعالى إليه، وربما أجرى الشفاء على يديه، فقلبه في الحقيقة يستقبل ربه ولكنه لا يبطل الأسباب؛ بل يعلم أن الله ﷻ هو مسبب الأسباب، لا يلغي السبب لكنه لا يغفل عن المسبِّب، قال ابن القيم رحمه الله: «الرجاء حادٍ يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويُطيب لها السير. وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه. وقيل: هو الثقة بجود الرب ﷻ»(١). وقد قيل شعرًا:

لولا التعلُّق بالرجاء تقطَّعت نفس المحب تحسُّرًا وتمزُّقًا
لولا الرجا يحدو المطي لَما سَرَت بحمولها لديارهم ترجو اللقا

الفرق بين الرجاء وبين الأماني: أن الأماني بضاعة البطال، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، والرجاء مقرون بعمل، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ﴾، أما الأماني فإنها تشوفات وتطلعات غير مقرونة بعمل، فلا يلبث أن يرى أن بساط العمر قد طوي ولم يخرج بطائل(٢).

فإياك أن تقع في هذا المزلق ـ مزلق الأماني ـ؛ فإنه لا يوصلك إلى مقصودك.

فهاتان عبادتان متقابلتان: الخوف والرجاء، وهذا من بديع دين الله: أن الله ﷻ يضبط النفس الإنسانية في معادلة دقيقة بحيث أن القلب يجري في هذا المضمار بين قطبي الخوف والرجاء؛ فالعبد يخاف من الله تعالى خوفًا يحجزه عن معاصيه، ويتعلق بربه تعلقًا يحفزه على طاعته،

(١) مدارج السالكين (٢/٣٦).
(٢) ينظر: مدارج السالكين (٢/٣٧).

ويصبح القلب متوازنًا بين هذين، فإذا أقبلت نفسه على الدنيا، واستشرفت مباهجها وفتنها، جاء الخوف فضربه بسوط لاذع وقال: الزم الجادة! وإذا ادلهمت الخطوب، وضاقت به السبل، ووقع في المضائق، جاء نسيم الرجاء فنفَّس عنه، وعلَّقه بربه وبفَرَجه، فتنفس الصعداء وتفتحت الآمال، كل هذا بأثر هاتين العبادتين الجليلتين.

وقد صوَّر العلماء الخوف والرجاء كجناحي الطائر؛ لو كان أحد الجناحين أكبر من الآخر لجنح في طيرانه، فينبغي أن يكون الحال الغالب على الإنسان تساوي الخوف والرجاء كما قال ربنا ﷻ: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٧].

عبادة (المحبة)

هناك عبادة ثالثة في الحقيقة هذا موضعها ومحلها، لم يذكرها الشيخ، ولعل هذا فوات حرص، وهي من أشرف العبادات القلبية، ألا وهي: (المحبة)؛ لأن أمهات العبادات القلبية ثلاث: المحبة والخوف والرجاء، وأصل هذه الأنواع الثلاثة وأشرفها المحبة؛ فالمحبة أعظم من الخوف والرجاء؛ لأن الخوف والرجاء ينقطعان ببلوغ الجنة: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٦٨﴾ [الزخرف: ٦٨]. أما المحبة فلا تنقطع، فمحبة المؤمن لربه باقية في الدنيا وتتضاعف في الآخرة، ودليلها قول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ فمحبة الله ﷻ أشرف أنواع العبادة.

المحبة كذلك أنواع:

النوع الأول: المحبة الطبيعية الغريزية المباحة: كمحبة الطعام،

والشراب، والولد، والوالد، والزوجة، والزوج، وغير ذلك، فلا يلام عليها صاحبها.

النوع الثاني: المحبة المحرَّمة: وهي أن تحمله المحبة والتعلق إلى الوقوع فيما حرم الله، كما لو أحب شرب الخمر.

النوع الثالث: محبة العبادة وهي محبة السر: فهذه لا يجوز أن تصرف لغير الله، فمن أحب غير الله المحبة التي لا تنبغي إلا لله، فقد وقع في الشرك الأعظم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ومن رُزِق هذه العبادة، صارت جميع المحاب وجميع الملذات، تندرج تحت محبة الله ﷿؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ. وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»(١).

وبهذا تكتمل الحلق الثلاث: المحبة والخوف والرجاء؛ فحري بالمؤمن العاقل اللبيب أن يعتني بتحصيل هذه الأمهات؛ أمهات العبادات الثلاث: المحبة والخوف والرجاء. وقد صور بعض العلماء هذه الثلاث بالمركبة يستقلها الإنسان؛ فالمركبة هي المحبة، والقائد الذي يقودها هو الرجاء، والذي يحجزها عن الحيدة يَمنة ويَسرة هو الخوف.

قوله: (ودليلُ التَّوكُّلِ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾، **وقوله:** ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾).

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (١٦)، ومسلم، رقم: (٤٣)، من حديث أنس بن مالك ﵁ مرفوعًا.

التوكل

حقيقة التوكل اعتماد القلب على الله ﷻ في حصول المطلوب، ودفع المرهوب مع فعل الأسباب الموصلة إلى ذلك.

فالقلب قلب يركن إلى ركن شديد: وهو الله ﷻ، لا بمجرد الكلام بل يتضح في المواقف، فيتبين من المتوكل على الله حقًّا ممن يتوكل باللسان، إذا ادلهمت الخطوب وضاقت السبل وغلِّقت الأبواب؛ حينئذٍ يهرب القلب ويتلفت يَمنة ويَسرة، فمن كان فزعه إلى الله معتقدًا بأنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئات إلا الله ﷻ، ولم يمنعه شعوره ذلك من اتخاذ الأسباب التي نصبها الله أسبابًا، فهذا المتوكل حقًّا.

وأما من اتكأ على أريكته وقال: أنا متوكل، ولم يفعل سببًا، فهذا متواكل، وليس متوكلًا، فلا بد في التوكل من فعل الأسباب.

استدل المؤلف رحمه الله على إثبات عبادة التوكل بقول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٣﴾، هكذا جاء فيما خاطب به موسى عليه السلام بني إسرائيل حينما قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، فوعظهم وكان في موعظته: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٣﴾. فدل ذلك على أن التوكل شرط في الإيمان، وكذلك قول الله تعالى على سبيل الإطلاق: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ ومعنى ﴿حَسۡبُهُۥٓۚ﴾؛ أي: كافيه، من: أداة شرط، يتوكل: فعل الشرط، جواب الشرط وجزاؤه: جملة ﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ وهذا ضمان من رب العالمين.

وهذه الآية جاءت عند ذكر الرزق حيث قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ

حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾﴾، ما أحوجنا إلى التوكل! ما أحوجنا إلى استحياء هذه المعاني في قلوبنا! لماذا نقلق؟ لماذا نأرق؟ لماذا يلحقنا الهم والغم؟ بسبب ذهاب النفس حسرات وراء الأسباب الدنيوية، لكن لو كان العبد مملوء القلب بهذه المعاني، لاستقر قلبه وسكن باله ولم ينشأ عنده ما يدعوه إلى القلق.

والتوكل عبادة؛ لا يجوز صرفه لغير الله؛ فلا يجوز للعبد أن يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فلو قال عبد لشخص: توكلت عليك في شفائي أو توكلت عليك في رزقي؛ فقد وقع في الشرك الأعظم الذي لا يغفره الله ﷻ.

وأما التوكيل فهو مباح؛ وهو ما يُعرف عند الفقهاء «بالوكالة الشرعية» بأن يذهب الإنسان إلى كتابة العدل ويقول: وكلت فلانًا ببيع بيتي، أو في شراء كذا أو كذا؛ فهذا لا حرج فيه، وقد وكَّل النبي ﷺ عددًا من أصحابه في بعض الأمور، ولم يزل الناس هكذا:

الناس للناس من بدو وحاضرة ... بعض لبعض، وإن لم يشعروا خدم

فالناس يقضي بعضهم مصالح بعض بالوكالة، فهذه الوكالة لا حرج فيها. ونقول أيضًا: أنه ينبغي لمن وكل غيره بوكالة أن يستصحب في قلبه أن الله ﷻ هو الذي يبلغه مقصوده، وأنه ليس الوكيل الفلاني هو الحاذق البارع الذي يمكن أن يتم عليه المطلوب؛ بل يرى أن هذا سبب نصبه الله تعالى يمكنه من بلوغ مراده.

قوله: (وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُوعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾).

الرغبة والرهبة والخشوع

هذه ثلاث عبادات قلبية، والمقصود **بالرغبة**: الميل للوصول إلى المقصود.

وأما الرهبة: فإنها نوع من الخوف، وقد عرَّفها ابن القيم بأنها: «الإمعان في الهرب من المكروه»(١).

وأما الخشوع: فهو الخضوع والضراعة والهبوط كما قال الله ﷻ ﴿تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]؛ أي: مطمئنة وهامدة وساكنة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩]؛ فالمقصود بالخشوع الذل والتطامن، والخشوع الشرعي: هو الذل والتطامن لله ﷻ؛ فلذلك كان عبادة.

وقد جمع هذه المقامات الثلاث قول الله ﷻ عن جملة من أنبيائه من المصطفين الأخيار الذين ذكرهم الله ﷻ في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، هؤلاء هم المَثَل، هم النماذج، هم الأسوة الحسنة التي ينبغي للبشرية أن تنسج على منوالها؛ لا أن يُعظم بعض القاصرين الناقصين ويمجدون ويوصفون بالكَمَلة، الكَمَلة حقًّا من عباد الله هم أنبياء الله تعالى ومن سار على طريقهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ أي: أنهم لا يقتصرون على فعل الخيرات؛ بل فوق ذلك يسارعون فيها، وذلك أن الإيمان إذا حل في القلب كان كالوقود الباعث الذي يدفع صاحبه حثيثًا للوصول إلى مقصوده؛ فلذا تجد

---

(١) مدارج السالكين (١/٥٠٨).

أهل الإيمان يحفزهم باعث قوي، كما في قصة الرجل المؤمن فقال: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: ٢٠]، هذا السعي نابع من امتلائه بالإيمان، فتجده حيًّا يقظًا متحركًا بسبب هذه الجذوة التي تعتمل في داخله.

والمؤمن يكون في حال بين الخوف والرجاء، وبين الرغبة والرهبة، ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]، هذه حقيقة الإيمان؛ فالخوف والرجاء والرغبة والرهبة ويضاف إليهما المحبة، هي أسباب صلاح القلب، ولا يجوز الاقتصار على أحدها وترك الباقي؛ فإن بعض من يدعون السلوك يختارون خصلة واحدة ويدعون ما سواها، فتجد مثلًا من يعبد الله بالخوف وحده، وتجد من يعبد الله بالرجاء وحده، وتجد من يعبد الله بالحب وحده، قال أهل العلم: «من عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالحب والخوف والرجاء فهو المؤمن الموحِّد»[(١)].

فهناك من يعبد الله بالخوف وحده: وهذا حال الحرورية الخوارج الذين لا يقرؤون إلا نصوص الوعيد ويحجرون رحمة الله تعالى.

وبإزائهم المرجئة: الذين يوسعون دائرة الرجاء والأماني، ويتعلقون بنصوص الرجاء، ويغضون الطرف عن نصوص الخوف.

وهناك طائفة ثالثة وهم: «غلاة الصوفية»، الذين يعبدون الله بالحب وحده، ويدعون ما سواه حتى إن قائلهم يقول: «ما عبدتك طلبًا لجنتك

---

(١) نسبه الغزالي لمكحول الدمشقي كما في إحياء علوم الدين (٤/١٦٦)، وعزاه شيخ الإسلام ابن القيم إلى بعض السلف بدون تعيينهم. ينظر: العبودية (ص١١٢)، وبدائع الفوائد (٣/ ١١).

ولا خوفًا من نارك إنما عبدتك محبة لك»، كما قال إمامهم وكبيرهم ابن عربي الطائي الأندلسي:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

يا سبحان الله! إذا كان الخُلَّص من عباد الله يرجون رحمة الله ويخافون عذابه فمن أنت حتى تقول: أنا تجاوزت هذا الحد وصرت لا أعبدك لا خوفًا ولا رجاءً، عبدتك بالحب وحده! هذه زندقة.

أما عبادة سيد المرسلين وإمام المتعبدين محمد بن عبد الله ﷺ فإنه يعبد الله بالحب، والخوف، والرجاء، وسائر أحوال القلوب.

قوله: (وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ الآية).

تعريف الخشية والفرق بينها وبين الخوف

الخشية: نوع من الخوف لكنها أخص منه، وذلك أن الخشية خوف مقرون بعلم، فهي نابعة عن علم بالمخوف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فخشية العلماء لله تعالى مبنية على علمهم بمقتضى أسمائه وصفاته؛ فلذلك كانت خشية مبصرة، وهذا أعلى وأجل، والخوف من المقامات الإيمانية.

والفرق بين الخوف والخشية من جهتين:

الفرق الأول: أن الخشية أخص من الخوف؛ لأنها خوف مقرون بعلم.

الفرق الثاني: أن الخشية مبنية على عظم المَخشي، والخوف مبني على ضعف في الخائف.

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالخوف والخشية فقال

سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ الآية [البقرة: ١٥٠]، فيجب صرف الخشية لله ﷻ وعدم صرفها لغيره، والمقصود بذلك خشية السر: أي: خشية العبادة.

قوله: (وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ الآية).

(الإنابة): المقصود بها الرجوع والعود، استدل بقول الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾؛ أي: أقبلوا على ربكم بالتوبة وراجعوه بالطاعة، وأسلموا له: أي: اخضعوا له.

وذلك أن الإسلام نوعان: إسلام كوني وإسلام شرعي:

أما الإسلام الكوني: فإنه يشمل جميع الخلائق كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣]، فهذا الإسلام لا يخرج عنه أحد، فما من ذرة من ذرات الكون إلا وهي خاضعة لرب العالمين مستسلمة منقادة له، لا يخرج عن ذلك أحد؛ حتى الكافر هو مسلم بهذا الاعتبار؛ لأنه منقاد خاضع لقدر الله الكوني، لا انفكاك له عما يُجريه الله تعالى عليه من أقدار، هذا هو النوع الأول وهو الإسلام الكوني.

أما الإسلام الشرعي: فهو الإسلام الطوعي الاختياري الذي يفعله المرء بمحض اختياره وسبق إصراره، فيمتثل الأوامر ويجتنب النواهي، وهذا هو إسلام المؤمنين، ويتفاوت أهل الإيمان في درجات هذا الإسلام:

فمنهم من يكمل استسلامه لله فلا يعصي الله تعالى في شيء، ومنهم من يثلم إسلامه بنوع معصية لكنه في الأعم الأغلب يكون من جملة المسلمين.

وإنما يُحمد صاحب الإسلام الشرعي؛ لأن الكوني ليس للإنسان فيه دور ولا أثر.

قوله: (وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»).

الاستعانة

(الاستعانة): هي طلب العون، والمرء ضعيف بطبعه ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء: ٢٨]، فلا غنى له عن مدد خارجي، وهو يحتاج إلى هذه المعونة في أموره الدينية والدنيوية؛ إذ لا قيام له بنفسه؛ بل لا بد له من مقيم؛ ولذلك كانت الاستعانة عبادة كما قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، حتى العبادة لا بد فيها من معونة الله ﷻ. وقد قيل:

إذا لم يكن عونٌ من اللَّه للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

وقد قال النبي ﷺ في وصيته الرقيقة لمعاذ بن جبل قال: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، فَقَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(١)، فلا غنى لك أيها المؤمن عن الاستعانة بمعبودك للوصول

---

(١) أخرجه أبو داود، رقم: (١٥٢٢)، والنسائي، رقم: (١٣٠٣)، وصححه ابن خزيمة في صحيحه، رقم: (٧٥١)، وابن حبان في صحيحه، رقم: (٢٠٢١)، والحاكم في المستدرك، رقم: (١٠١٠)، ووافقه الذهبي، وصححه النووي في رياض الصالحين، ت: الفحل (ص١٣٨)، رقم: (٣٨٤)، والألباني في صحيح أبي داود ـ الأم ـ (٥/ ٢٥٣)، رقم: (١٣٦٢)، والأرناؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان.

إلى مقصودك، وقال النبي ﷺ أيضًا: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ**...»[١]؛ فالاستعانة عبادة؛ ولما كانت عبادة لم يجز صرفها لغير الله ﷻ، فمن استعان بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فقد وقع في الشرك الأكبر.

أما من استعان بغير الله في أمر يقدر عليه ذلك الغير، فذلك ليس شركًا كما تقول لصاحبك مثلًا: أعني على حمل متاعي، أعني على ركوب دابتي، أعني على إتمام هذا البحث، أما من استعان بغير الله في أمر لا يقدر عليه إلا الله أو استعان بذلك الغير فيما لا يقدر عليه ذلك الغير؛ كأن يستعين بميت مقبور، أو يستعين بشخص غائب، فهذا هو الشرك الأعظم الذي يخرج صاحبه من الملة، وأما ما سوى ذلك فهو ما بين محمود ومذموم ومباح:

فالمحمود منه: التعاون على البر والتقوى كما قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، فهذه الاستعانة استعانة محمودة.

والمذموم منه: ما كان تعاونًا على معصية الله كأن يستعين بصاحبه على تهيئة أمر محرم، فهذا محرم لكن لا يبلغ مبلغ الشرك.

والمباح منه: ما جرت به عادة الناس من تخادمهم فيما بينهم.

قوله: (وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ①﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ①﴾).

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

الاستعاذة

الاستعاذة عبادة لله ﷻ، وحقيقة الاستعاذة: طلب العوذ، والمقصود بالعوذ: الاعتصام والالتجاء بالمعوَّذ به، ولما قالت امرأة دخل عليها النبي ﷺ، وهي ابنة الجون قالت: (أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ)، فَقَالَ لَهَا: «**لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمٍ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ**»(١). وهي عبادة؛ لأن الله تعالى أمر بها عباده فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾، وقال النبي ﷺ: «**أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**»(٢)، وقال: «**وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**»(٣)، وقال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالبُخْلِ وَالجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**»(٤)... إلى غير ذلك من نصوص الاستعاذة الكثيرة.

فالعوذ الشرعية كثيرة جدًّا؛ فيجب صرفها لله ﷻ. والاستعاذة التي تكون عبادة: هي التي لا تُطلب إلا من الله ﷻ، فمن طلبها من غير الله فقد وقع في الشرك الأكبر، كمن استعاذ بمخلوق فيما لا يقدر عليه ذلك المخلوق، أما من استعاذ بمخلوق في أمر مقدور له فهذا ليس بشرك،

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٥٢٥٥)، عن أبي أسيد ﷺ مرفوعًا.

(٢) أخرجه مسلم، رقم: (٢٢٠٢) من حديث عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ ﷺ مرفوعًا.

(٣) أخرجه أبو داود، رقم: (٥٠٧٤)، وابن ماجه، رقم: (٣٨٧١)، والنسائي، رقم: (٥٥٢٩) من حديث ابن عمر ﷺ، وصححه ابن حبان في صحيحه، رقم: (٩٦١)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، رقم: (٢٣٨)، والحاكم في مستدركه، رقم: (١٩٠٨)، والألباني في تخريج الكلم الطيب (ص٧٣)، رقم: (٢٧)، والأرناؤوط في تحقيق أبي داود.

(٤) أخرجه البخاري، رقم: (٢٨٩٣)، من حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعًا.

وقد جاء في الحديث: «يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ»[١]، في إشارة إلى المهدي الذي يخرج في آخر الزمان، وذلك أن البيت الحرام فيه معاذ للناس وأمن؛ لأنه لا يحل فيه سفك الدماء.

فعلى هذا: لو قال امرؤ لصاحبه أعذني من كذا وكذا، وذلك الشيء المستعاذ منه مقدور للمخاطب فلا بأس؛ كأن يلحقه لص أو عدو، فيقول لصاحبه أعذني منه؛ يعني: أجرني منه وأدخلني في حمايتك فهذا لا بأس منه.

أما لو استعاذ به على وجه شركي فهذا لا يجوز، ومثال ذلك: ما حدثنا الله تعالى به في سورة الجن، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦]، جاء في سبب نزول الآية: «أن بعض العرب كَانُوا إِذَا نَزَلُوا الْوَادِي قَالُوا: نَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الْوَادِي مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ، فَتَقُولُ الْجِنُّ: مَا نَمْلِكُ لَكُمْ وَلَا لِأَنْفُسِنَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا»[٢].

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ قال المفسرون: تحتمل أحد معنيين[٣]:

إما أن الجن زادوا الإنسَ رهقًا؛ أي: خوفًا، وعنتًا، وذعرًا، باضطرارهم إليهم، وتضعُّفهم أمامهم، فلم يحصل لهم مرادهم.

وإما أن المراد زاد الإنسُ الجنَّ رهقًا؛ أي: تكبرًا، وتجبرًا.

ولا تنافي بين المعنيين فكلاهما حاصل، فلما استعاذوا بغير الله ﷻ

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (٢٨٨٢)، من حديث أم سلمة ﵂ مرفوعًا.

(٢) رواه الطبري بسنده عن إبراهيم النخعي، وذكر نحوه عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة وغيرهم، ينظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٢٢).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢٣/ ٣٢٤ ـ ٣٢٦)، تفسير ابن كثير، ت: سلامة (٨/ ٢٣٩)، تفسير السعدي (ص٨٩٠).

فيما لا يقدر عليه إلا الله أورثهم ذلك هذه النتيجة الوخيمة زاد خوفهم وذعرهم وزاد طغيان الجن واستضعافهم إياهم، وهكذا كل من استعاذ بغير الله؛ فالذين يقصدون السحرة والمشعوذين لا يزيدهم هذا إلا وبالًا، فإنهم لا يزالون يبتزونهم ويستضعفونهم ويسلبون أموالهم؛ لأنهم يعلقونهم بأمر موهوم مخوف، فيزيدونهم رهقًا.

وأعظم ما استعاذ به المستعيذون هاتان السورتان: الفلق والناس، فعن أبي سعيد ﷺ قال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَيْنِ الْجَانِّ، ثُمَّ أَعْيُنِ الْإِنْسِ، فَلَمَّا نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، أَخَذَهُمَا وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ) [(١)]، فينبغي للإنسان أن يعتني بهاتين السورتين في أوراد الصباح والمساء وقبل النوم؛ حتى يحصل بذلك العوذ الشرعي المطلوب، وعلى الإنسان ألا يستعيض عنها بالأدعية المزخرفة التي يصطنعها الناس؛ بل يرفع رأسًا بالعوذ الشرعية التي دل عليها كلام الله وكلام نبيه ﷺ وأن يقدمها على كل شيء.

وتجوز الاستعاذة بالله سبحانه بأن يقول: أعوذ بالله أو باسم من أسمائه: كأن يقول أعوذ برب الفلق أعوذ برب الناس ملك الناس إلٰه الناس، فيكون قد استعاذ بجملة من أسماء الله، ويجوز أن يستعيذ بصفة من صفات الله: كأن يقول أعوذ بعزة الله، كما قال نبينا ﷺ: «**أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ، وَأُحَاذِرُ**»[(٢)]؛ فاستعاذ بصفتين من

---

(١) أخرجه الترمذي، رقم: (٢٠٥٨)، والنسائي، رقم: (٥٤٩٤)، وابن ماجه، رقم: (٣٥١١)، وقال الترمذي: «وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ»، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢/ ١٢٨٦)، رقم: (٤٥٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود، رقم: (٣٨٩١)، الترمذي، رقم: (٢٠٨٠)، وابن ماجه، رقم: (٣٥٢٢)، من حديث عثمان بن أبي العاص مرفوعًا، وقال الترمذي: =

صفات الله ﷻ، أما من استعاذ بميت أو غائب أو حي غير قادر على الإعاذة فهذا ضرب من الشرك.

قوله: (وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الآية).

الاستغاثة وأنواعها

(الاستغاثة): طلب الغوث، وقد جرى ذلك للمؤمنين يوم بدر فإن الله جمع بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، خرجوا يطلبون العير فلقوا النفير، خرجوا يريدون قافلة أبي سفيان فوجدوا قريش بقضها وقضيضها، وعتادها وخيلها ورَجِلها، كان عدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر وكان عدد قريش ألفًا ونيف، فلا سواء؛ من حيث العدد والعدة، ومع ذلك ثبَّت الله المؤمنين، فقام النبي ﷺ يستغيث بربه ويناجيه ـ وهو في العريش ـ ويقول: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: (يَا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩**﴾ فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ)[1]، فهذه استغاثة.

= «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وصحَّحه ابن حبان، رقم: (٢٩٦٥)، وصحَّحه الألباني في تخريج الكلم الطيب (ص١٣١)، رقم: (١٤٩)، والأرناؤوط في تحقيق ابن حبان، وتقدم أنه في مسلم بلفظ: «**أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**».

(١) أخرجه مسلم، رقم: (١٧٦٣)، من حديث عمر بن الخطاب ﷺ مرفوعًا.

فالاستغاثة عبادة تطلب من الله ﷻ، **وهي أنواع:**

النوع الأول: استغاثة العبادة، وهي: طلب الغوث من الله ﷻ. ومن استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد وقع في الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ كالذين يستغيثون بالأولياء والأوتاد والأقطاب، وغير ذلك من الألقاب التي يخترعونها، وهذا قد فشا وعم وطم بين الجهال من الطرقية الصوفية والرافضية، حتى إنهم ليأتون بالمضحكات، ومن قرأ في «طبقات الشعراني» ـ «طبقات الأولياء» كما يسمِّيهم ـ رأى العجب العجاب، من أقوام ينسبون أنفسهم إلى الإسلام، وهم يدعون غير الله، ويصيح أحدهم: مدد يا فلان، يطلب المدد من غير الله ﷻ فيما لا يقدر عليه إلا الله وهو غائب.

ومما مر بي من ذلك، أنه كان ذكر حال رجل ممن يدعي أنه من الأولياء، وأن أحد مريديه استأذنه في السفر إلى الهند، فأذن له وقال: إن اعتراك خطب فادعُ باسمي؛ يعني: استغث بي، فخرج الرجل وركب البحر، قال: فبينا ذلك الشيخ المزعوم بين أصحابه يومًا إذ به يفر عن ذراعه ويمد يده، فإذا هم يرون الماء يبلغ كمه حتى بلغ عضده حتى بلغ الماء إلى كتفه؛ فقالوا: رأينا منك عجبًا، قال: نعم، أتذكرون فلانًا؟! فإني أوصيته إذا ألَّم به خطبٌ أن يستغيث بي، فركب البحر فهاج البحر وعلتهم الأمواج حتى أشرفوا على الغرق فذكر مقالتي فنادى باسمي: يا شيخ فلان، فمددت يدي فأخرجت السفينة من قعر البحر! هكذا تروج هذه الخرافات على هؤلاء الطغام فينتقلون من التوحيد إلى الشرك. فيجب التنبه لهذا، والفصل بين هذا وبين الولاية الحقيقية لرب العالمين، فإن الولاية الحقيقية غير الولاية المدعاة، وأعظم علامة لأولياء الله امتثالهم لشرع الله وأعظمه التوحيد ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

النوع الثاني: الاستغاثة المباحة، وهي: الاستغاثة فيما يقدر عليه الآدمي، فلا بأس بها، والدليل على جواز ذلك: قول الله ﷻ في قصة موسى مع الإسرائيلي والقبطي قال: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، فلا حرج أن يقول إنسان: يا فلان، أغثني. فيما يقدر عليه، مثال ذلك: أن يكون شخص يتخبط غرقًا فيبصر أحدًا على الشاطئ فيقول: يا فلان! أغثني، أغثني. فهذه ليست استغاثة شركية.

أو يكون في بيت يحترق فيفتح النافذة ويقول: الغوث، أغيثونا. فهذه أيضًا استغاثة مباحة.

قوله: (وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾، وَمِنَ السُّنَّةِ: «لعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»).

الذبح وأنواعه

النسيكة هي الذبيحة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ [الكوثر: ٢]، فقرن بين الصلاة والنحر، كما قرن بينهما هاهنا فقال: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾؛ فالنسك قيل: إنه الذبح، وقيل: إنه مطلق العبادة، والأقرب أن يكون المراد به الذبح؛ لأنه ذكره مقرونًا أو معطوفًا على الصلاة كما جرى التعاطف في سورة الكوثر، ﴿وَمَحۡيَايَ﴾: عملي في حياتي، ﴿وَمَمَاتِي﴾؛ أي: ما أموت عليه، ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾ الدين لا يقبع في زاوية من زوايا الحياة، أو يختص بأعمال معينة بين جدران المسجد، أو بدريهمات يبذلها للفقير، أمر الدين أشمل من ذلك، الدين يستوعب الدنيا بأكملها ويتصل بالآخرة، فينبغي أن ندرك هذا المعنى الشمولي؛ لأن كثيرًا من الناس من جراء تأثرهم بالنظرات الغربية للدين صاروا يتصورون الدين أحد أنواع الاهتمامات

واختصاصات الحياة، وهذا فهم كهنوتي للدين، هذا فهم النصارى الذين يقسمون الناس إلى قسمين: رجال الكهنوت الذين هم رجال الدين عندهم، والعلمانيين الذين هم رجال الدنيا. ليس عندنا في الإسلام هذا التقسيم، الدين والدنيا عندنا في سياق واحد؛ فكل أمور الحياة ومناشطها يجللها ويصبغها دين الله ﷻ، الذي لم يدع شاذة ولا فاذة إلا دل الناس عليها؛ ولهذا عبَّر الله تعالى بتعبير بديع فقال ﷻ: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ۝١٣٨﴾ [البقرة: ١٣٨]، وميزة الصبغة أنها تنتشر في جميع الأنسجة؛ فأنت إذا أخذت قطعة قماش وغمستها في سائل ملون فإن هذا اللون يصبغ جميع الأنسجة، كذلك الدين؛ ما إن ينغمر القلب في دين الله ﷻ حتى يسمع بالله، ويبصر بالله، ويأتي ويذر بدين الله، فيصبح جميع الأمر لله ﷻ، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢﴾؛ فالذبح عبادة؛ فلا يجوز الذبح لغير الله أبدًا؛ فمن ذبح لغير الله، ومن أهرق الدم تقربًا لغير الله، فقد وقع في الشرك الأعظم الذي لا يغفره الله، وقد كان زيد بن عمرو أحد الحنفاء قبل بعثة النبي ﷺ ينكر على مشركي العرب صنيعهم، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَقِيَ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَحٍ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الوَحْيُ، فَقُدِّمَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ سُفْرَةٌ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ زَيْدٌ: إِنِّي لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ، وَلَا آكُلُ إِلَّا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ، وَيَقُولُ: الشَّاةُ خَلَقَهَا اللهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ المَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللهِ، إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ)(١)، فيا لها من حجة بالغة.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٣٨٢٦).

والذبح أنواع:

النوع الأول: ذبح العبادة: فهو ما يتعلق بما شرعه الله لعباده؛ من الهدي، والفدية، والأضحية، والعقيقة.

النوع الثاني: الذبح المباح: كأن يذبح الإنسان لتحصيل اللحم، ولضيف وفد عليه، أو نحو ذلك؛ فإن اقترنت به نية صالحة تحولت هذه العادة إلى عبادة، وإن لم تقترن به هذه النية، فإنها تبقى عادة من العادات. لكن يشترط فيها ذكر اسم الله وإنهار الدم.

النوع الثالث: الذبح الشركي: هو ما يقع من بعض مشركي هذا الزمان وما قبله من أزمان، بأن يذبحوا تقربًا إلى الجن أو السحرة والمشعوذين، فتجد هذا الساحر أو المشعوذ يطلب ممن قصده أن يذبح ديكًا أسود، أو تيسًا أسود، في ساعة معينة، ولا يذكر اسم الله عليه، فهذا ـ والعياذ بالله ـ مخرج عن الملة لا يجوز فعله بأي حال من الأحوال.

قوله: (وَمِنَ السُّنَّةِ: «لعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»): عدَّ النبي ﷺ أربعة ملاعن فقال: **«لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ الْمَنَار»**(١)، ومنها هذه اللعنة: **«لعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»**؛ لأن من ذبح لغير الله فقد أشرك معه غيره.

وينبغي في هذا المقام التنبيه على ما يفعله بعض الناس حينما يريقون الدماء بدعوى إكرام الضيف لكن يكون في قلوبهم تعظيم القادم، وهذا يقع في بعض البوادي إذا قدم عليه الضيف قدَّم هذه الذبائح وقام يذبحها أمامه، فربما قام في قلبه تعظيم هذا القادم إن كان سلطانًا أو

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (١٩٧٨)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعًا.

أميرًا. بخلاف أن يكرمه بقصد الإطعام، فذلك مستحب فإن النبي ﷺ قد قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**»(١)، لكن إن قصد بذلك تعظيم هذا القادم أدخله في الشرك من حيث لا يعلم؛ لأن في الذبح نوع تعظيم، فعلى الإنسان أن ينتبه لمثل هذه المسالك.

قوله: (**وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾).

النذر وحكمه

النذر عبادة، وحقيقة النذر: إلزام المكلف نفسه عبادة ليست واجبة عليه، أو أمرًا لا يلزمه.

وقد اختلف العلماء في حكم النذر فمنهم من قال: هو حرام، ومنهم من قال: هو مكروه. ولعل القول بالكراهة أعدل الأقوال.

وفرق بين الابتداء وبين الوفاء، فابتداؤه مكروه؛ لأن العبد يضيِّق على نفسه واسعًا، ولو تعبَّد العبد لله بما شرع لكفى، وقد رأينا من حال الناذرين أنهم يبحثون عمن يخرجهم من هذا الحرج، إما أنهم ينذرون صومًا طويلًا، أو صدقة باهظة، أو بحجج أو عُمرات، أو غير ذلك من الأمور. قال النبي ﷺ: «**إِنَّ النَّذْرَ لَا يُقَدِّمُ شَيْئًا وَلَا يُؤَخِّرُ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِالنَّذْرِ مِنَ الْبَخِيلِ**»(٢)، وصدق بأبي هو وأمي، فإنا والله نسمع من بعض المستفتين من إذا أخذ يسأل عن النذر كأنما يماكس مماكسة، هل يجب

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٦٠١٨)، ومسلم، رقم: (٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٦٦٩٢)، ومسلم، رقم: (١٦٣٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

علي كذا؟ هل يمكن أن أخرج منه بكفارة يمين؟ هل يمكن أن أنفقه على أولادي؟ فينبغي أن يتجنب الإنسان النذر، وإذا أراد من ربه شيئًا فما أسهل الأمر! يرفع يديه ويقول: يا رب، يا رب. فالله تعالى لا يعطيك بالمقايضة لأجل أن تنذر، الله تعالى كريم لا تفنى خزائنه فسل الله ما أردت من خيري الدنيا والآخرة دون أن تنذر.

وإذا انعقد النذر وجب الوفاء به إن كان نذر طاعة لقول النبي ﷺ: **«مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ»**[(١)].

واستدل الشيخ على كونه عبادة بقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧﴾، وقد اختلف العلماء هل النذر المقصود في هذه الآية النذر الذي يعنيه الفقهاء؟ أو المقصود بالنذر مطلق الطاعة؟ قولان؛ يحتمل هذا ويحتمل هذا[(٢)]. وشبيه بهذا قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ۝٢٩﴾ [الحج: ٢٩]، فقيل أيضًا فيها. إن المقصود بوفاء النذور إما النذر الذي سبق تعريفه عند الفقهاء، وإما المقصود مطلق الطاعة[(٣)].

فيجب أن يفي الإنسان بالنذر الذي خرج مخرج الطاعة.

والنذر أنواع محل تفصيله وبحثه في كتب الفقه، والمقصود هاهنا أنه لا يجوز أن يتقرب لغير الله بالنذر، لا يجوز أن ينذر الإنسان لمقام فلان ومشهد فلان وتربة فلان، وهذا وللأسف شائع عند كثير من الجهال، ويشجعهم على ذلك السدنة ومشايخ السوء، المنتفعين من هذه النذور؛ لأنهم هم الذي يستقبلونها ويستغلونها.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٦٦٩٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا.
(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣٧٦).
(٣) ينظر: تفسير البغوي، ط. طيبة (٥/ ٣٨١).

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(الأَصْلُ الثَّانِي مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ).

الشَّرْح

الأصل الثاني

الأصل الثاني هو معرفة دين الإسلام بالأدلة، وقد نبهنا على عناية الشيخ بالأدلة، وفرق بين من يعلم الحق بدليله، ومن يعلمه تقليدًا، فإن من كمال التعبد لله عَزَّ وَجَلَّ أن تعرف الحق بدليله، وأن تمتثله اتباعًا.

قوله: (مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ): وعرَّفه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: **(الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ)**؛ يعني: الخضوع بالتوحيد، وقد بينا التوحيد بأنواعه الثلاثة، بأن يفرد الله تعالى بالربوبية، وأن يفرد الله تعالى بالعبادة والألوهية، وأن يفرد الله تعالى بما ينبغي له من صفات الكمال ونعوت الجلال.

قوله: (وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ): لا يمكن أن يقع إسلام إلا بطاعة خلافًا للمرجئة؛ فإن من ضرورة الإسلام لله رب العالمين العمل؛ ولأجل ذا نجد أن الله تعالى لا يكاد يذكر الإيمان إلا ويذكر معه العمل الصالح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النساء: ١٧٣]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥]، فلا بد من طاعة، فلو زعم زاعم أنه قد أفرد الله بالتوحيد لكنه لا يعمل عملًا البتة، لقلنا هذه دعوى باطلة.

قوله: (وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ): البراءة تعني: التخلي والمجانبة؛ إذ لا يجتمع توحيد وشرك، فالله تعالى يجعل الإيمان قائمًا على ساقين: توحيد الله والبراءة من الشرك كما قال الله ﷻ في آية الكرسي: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، قال الله تعالى في قصة الفتية من أهل الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]، فقد كان قومهم يعبدون غير الله، ويعبدون الله أيضًا، لكن هؤلاء الفتية أفردوا الله بالعبادة فلم يكن قومهم قد تركوا عبادة الله، كانوا يعبدون الله لكنهم يفسدون ذلك بالشرك.

وكذا قال إبراهيم: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، فقد كان قومه يعبدون الله لكنهم يفسدون ذلك بعبادة غيره معه، فتبرأ من جميع معبوداتهم واستثنى ربه ﷻ. وكذا كان مشركو العرب، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَيْلَكُمْ، قَدْ قَدْ»** فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ[1]. فأهل النبي ﷺ بالتوحيد: **«لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ، لَا شَرِيكَ**

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (١١٨٥).

لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ»(١)، فلا بد من البراءة من الشرك وأهله؛ لأن الشرك يتمثل في جماعة، فلا بد من البراءة من أهله أيضًا؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ؟ قَالَ: «**لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا**»(٢). وقد قال الله ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، هذه حقيقة الإسلام، ويجب أيها الإخوة أن يكون لدينا ألسنة ناطقة، وبيانًا واضحًا حينما نُعرِّف بديننا، فإذا قيل لنا ما دينكم الذي تدعون إليه؟ ينبغي أن ينطلق لسانك وبيانك في بيان حقيقة هذا الدين، وتميزه على سائر الأديان، وأنه لا يوجد دين توحيدي على وجه الأرض إلا دين الإسلام، هو إرث الأنبياء السابقين، وأما ما سواه من الملل والنحل فقد دخلها الشرك وفسدت بما أحدثه الأحبار والرهبان.

قوله: (**وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ**): الواقع أن هذه المراتب كما أسلفنا هي مراتب الدين؛ إذ لا يستقيم أن نقول: الإسلام ثلاثة مراتب أولها الإسلام؛ لأن هذا تعريف للشيء ببعضه؛ وإنما هي مراتب الدين، بدليل أن النبي ﷺ قد

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (١٢١٨)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٢) أخرجه أبو داود، رقم: (٢٦٤٥)، والترمذي، رقم: (١٦٠٤) عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ مرفوعًا، وأخرجه النسائي، رقم: (٤٧٨٠) عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ مرفوعًا بدون ذكر جرير، قال ابن حجر كما في التلخيص الحبير: «وصحح البخاري وأبو حاتم وأبو داود والترمذي والدارقطني إرساله إلى قيس بن أبي حازم»، (٤/٢١٨)، وصححه الألباني مرفوعًا بشواهده في الإرواء، رقم: (١٢٠٧)، والأرناؤوط في تحقيق سنن أبي داود (٤/٢٨١).

قال في حديث جبريل ـ الذي ذكر فيه الإسلام والإيمان والإحسان ـ قال في آخره: «**هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ**»[١].

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٥٠)، ومسلم، رقم: (٩).

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا إِلٰه إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ. فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨].

وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ، وَحَدُّ النَّفْيِ مِنَ الإِثْبَاتِ ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ.

وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨] وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَلَّا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ).

الشَّرْح

أركان الإسلام

الركن الأول

قوله: (فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا إلٰه إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ): شروع من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أركان الإسلام؛ فالإسلام مُقام على خمسة مبان، أعظمها وأشرفها وهي بوابة الإسلام وأول الأمر وأوسطه وآخره، الشهادتان؛ شهادة أن لا إلٰه إلا الله وشهادة أن محمدًا رسول الله. قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾، هذه أعظم شهادة من أعظم شاهد في أعظم مشهود به.

قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: الملائكة شهدوا بذلك أيضًا؛ لأنهم عند ربهم وهم أعلم الخلق به، وقد أثنى الله عليهم ثناءً عطرًا فقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧ ـ ٢٨]، وقال: ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: ١١]؛ فهؤلاء الملائكة العظام يشهدون لله عَزَّوَجَلَّ بالوحدانية.

قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾: لله دَرُّهم ما أعظم حظهم وشرفهم، حينما قرن الله شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وذلك أن أهل العلم قد نوَّر الله عقولهم وبصائرهم فأبصروا الأشياء والحقائق على ما هي عليه؛ ألم تر أن الله تعالى أحال عليهم وأرى رأيهم فقال: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ: ٦]، قوم يحيل الله عَزَّوَجَلَّ على رأيهم جديرون بالثناء،

ففي هذا شرف لأهل العلم. وقال تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فأهل العلم لديهم الملكة والقدرة على الاستنباط، ولذلك أثبت الله شهادتهم، فهذه أعظم شهادة في أعظم مشهود به من أعظم شاهد، وفي هذا شرف لأهل العلم لا يبلغه شرف؛ لأن الله تعالى قرنهم بذاته وملائكته.

(**أشهد**)؛ أي: أقر وأعترف، كأنك لقوة يقينك بهذا الأمر القلبي تشاهده رأي العين، ولا ريب أن المشاهدة أعظم ما يكون في التحقيق، فلهذا عبَّر بالشهادة مع أنه أمر علمي.

(**إلٰه**)؛ أي: مألوه بمعنى معبود، فهو على وزن فعال بمعنى مفعول؛ كقولنا كتاب؛ أي: مكتوب. فراش؛ أي: مفروش. بساط؛ أي: مبسوط. غراس؛ أي: مغروس، وليس إلٰه بمعنى آله أي فاعل، فمعنى قولك لا إلٰه إلا الله؛ أي: لا معبود بحق إلا الله، هذا تفسير كلمة التوحيد.

والإلٰه: هو من تألهه القلوب محبة وتعظيمًا؛ أي: تنجذب إليه، من الوله، وذلك أن الإلٰه المستحق للعبادة سبحانه وبحمده هو الذي يستقطب القلوب ويجذبها محبة وتعظيمًا، لا يستحق هذا أحد سواه، وهناك آلهة سوى الله بدليل أن الله سمَّاها آلهة فقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ [الأنبياء: ٤٣]، لكنها ليست آلهة بحق؛ ولهذا قال يوسف عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [يوسف: ٤٠]، إذن هي مجرد أسماء وعناوين، أما الإلٰه الحق المستحق للعبادة وحده دون ما سواه فهو الله سبحانه، لا إلٰه غيره، ولا رب سواه، وقد عدت شهادة واحدة مع تعدد المشهود به؛ لأنه لا يمكن أن تتحقق عبادة الله إلا بالإيمان برسوله ﷺ، ولا يمكن أيضًا أن تتحقق شهادة أن محمدًا رسول الله إلا بالإيمان بالله.

ثم بيَّن معناها بقوله: (**وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ، وحد النفي من الإثبات ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ**).

قوله كلمة: (**لا**)، هي النافية للجنس، فاسمها (**إلٰه**)، وخبرها محذوف. تقديرها: لا إلٰه حقٌّ إلا الله؛ فمعنى الكلام: لا معبود بحق إلا الله ﷻ.

أما المعبودات المزعومة فكثيرة؛ فمن الناس من يعبد الشجر، ومنهم من يعبد الحجر، ومنهم من يعبد البقر، وأصناف المعبودات التي قد لا تخطر ببال!

قوله: (**إلا اللهُ**): فأثبت الألوهية له وحده سبحانه، فـ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾؛ أي: نافيًا جميع ما يعبد من دون الله.

قوله: (**﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ**): وهذا تعليل حسن، فلما كان سبحانه لا شريك له في ملكه، كان جديرًا بأن يكون لا شريك له في عبادته، وتأملوا هذا المعنى العظيم الذي ذكره الله ﷻ في سورة سبأ، لتروا عظمة القرآن، وقوة دلالته وحجته، يقول تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢]؛ فالله تعالى نفى عنهم ابتداءً ملك ذرة في السماوات أو في الأرض. فربما قال قائل: لا يملكون استقلالًا لكن ربما يملكون مشاركة، فيكون في ذلك مسوغًا لدعاء من دون الله، فقال ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾. فربما قال قائل: لا يملكون استقلالًا ولا مشاركة، لكنهم بمنزلة الأعوان والخدم والحشم، الذين لا يستغني عنهم السلاطين، فيكون مسوغًا لعبادتهم ودعائهم من

دون الله، فقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢]؛ أي: معاون، فمَحَقَ الله ﷻ جميع ما قد يتسلل إلى الذهن من احتمال صحة دعاء غير الله، لكن بقي شيء واحد ربما يتذرع به المشركون؛ بل قد تذرعوا به، وهو: الشفاعة. قالوا: سلَّمنا أنهم لا يملكون استقلالًا، ولا مشاركة، ولا معاونة، لكن لهم جاه ومنزلة عند الله ﷻ تسوغ لنا أن نتخذهم وسائط، كما هو الحال عند ملوك الدنيا يكون لهم وزراء مقربون، فإذا توسط الإنسان بهم بلَّغوه مراده.

وهذا الاحتمال من أعظم أسباب الشرك، فقال الله تعالى معقبًا: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣] فإذا كانت الشفاعة لله جميعًا، فمعنى ذلك أنها لا تطلب إلا من عنده وبإذنه، إذا كانت الشفاعة لا تنفع إلا بإذنه فهي ملكه، فما الفائدة أن تطلب ممن لا يملكها؟! الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند ملوك الدنيا، فملوك الدنيا يجيزون شفاعة فلان وعلان إما رغبة أو رهبة، لكن الله ﷻ لا يستكثر بنا من قلة ولا يستعز بنا من ذلة، فكان تمكين بعض الأنبياء والصالحين من الشفاعة لإظهار فضلهم، لا أنهم يبادرون الله تعالى بذلك دون إذنه، فلا بد من شرطين: إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

فيا لهما من آيتين عظيمتين يمحقان الشرك من أصوله ويثبتان التوحيد؛ ولذا أردفهما الله تعالى بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: الملائكة الذين هم أقوى من يتصور دعاؤه من دون الله فحالهم مع ربهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ** ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ

قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ﴾ [سبأ: ٢٣] **لِلَّذِي قَالَ** ﴿ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٢٣﴾ [سبأ: ٢٣]»[1]، إذا كان هذا حال هؤلاء الذين هم أقوى من نتصور من يمكن أن يدعى من دون الله، فما بالك بمن دونهم؟ فهذا من عظيم دلائل القرآن ونفيه للشرك وإثباته للتوحيد.

قوله: (وَتَفْسِيرُهَا: الَّذِي يُوَضِّحُهَا)؛ أي: كلمة التوحيد.

قوله: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾).

هذا النبي الكريم صدع بكلمة التوحيد بين ظهراني قومه، فخصَّ وعمَّ، فلم يختلف الأمر عنده بين قريب وبعيد. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤]: **«يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ، سَلِينِي بِمَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»**[2].

وكذلك كان جده إبراهيم عليه السلام يقول لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦﴾، وكلمة ﴿بَرَآءٌ﴾ يسميها أهل اللغة صفة مشبهة، وهي أبلغ من أن يقول إنني بريء مما تعبدون، كأنما صار هو ظرفًا للبراءة، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، هذا يدل على أن قومه كانوا يعبدون الله ويعبدون معه

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٤٧٠١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.
(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٢٧٥٣)، ومسلم، رقم: (٢٠٦).

غيره؛ ولهذا تبرأ من جميع معبوداتهم واستثنى خالقه وإلٰهه الذي فطره، وهذا إذا اعتبرنا الاستثناء متصلًا.

أما إن قلنا الاستثناء منقطع فذلك يدل على أنهم لم يكونوا يعبدون الله فتبرَّأ من جميع معبوداتهم، ثم قال: إلا الذي فطرني؛ يعني: بل أعبد الذي فطرني، فعلامة الاستثناء المنقطع أن ترفع (إلا) وتضع مكانها (بل).

والتوجيه الأول أولى وأرجح؛ فإن الأمم السابقة كانت تعبد الله لكنها تشرك معه غيره.

معنى ﴿فَطَرَنِى﴾؛ أي: ابتدأ خلقي، فمعنى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]؛ أي: مبتدئ خلقهن. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «كُنْتُ لَا أَدْرِي مَا فَاطِرُ السَّمَوَاتِ حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بِئْرٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فَطَرْتُهَا؛ أي: ابْتَدَأْتُهَا»(١).

فقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ من أقوى دلائل التوحيد؛ لأنه يدل على أن الذي ابتدأ الخلق وأوجد مادته من العدم هو الحقيق بالعبادة، وبمثل ذا قال مؤمن القرية حينما جاء إلى قومه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [يس: ٢١ ـ ٢٢]، تجد أن كلام أهل الإيمان متشابه، وإلا فلا علاقة زمنية ولا جغرافية بين إبراهيم عليه السلام ومؤمن القرية رحمه الله، لكن الإيمان واحد فيثمر ثمرات واحدة فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾، وفي الحديث القدسي قال الله عز وجل: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ**

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢١٢). وينظر: تفسير ابن أبي حاتم، ط. مكتبة نزار الباز (١٠/ ٣١٧٠)، تفسير ابن كثير، ت: سلامة (٦/ ٥٣٢).

أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ»[1]، فيجب أن نشعر بهذا الافتقار لله ﷻ في مأكلنا ومشربنا، وفوق ذلك كله في هداية قلوبنا، فلهذا قال إبراهيم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾، ﴿وَجَعَلَهَا﴾ مرجع الضمير إلى تلك الكلمة: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، وهي كلمة التوحيد بمعنى لا إله إلا الله، ﴿عَقِبِهِۦ﴾؛ يعني: في ذريته، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾: يأوون إليها ويرجعون إليها عند الاختلاف، لكن منهم من هدى الله، ومنهم من ضل؛ لأن إبراهيم سأل ربه ذلك، لكن الله ﷻ بيَّن أن منهم من يؤمن ومنهم من يشرك. وقال تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٢٤﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾).

توجيه رباني للنبي ﷺ في مخاطبة أهل الكتاب، وأهل الكتاب في الكتاب والسُّنَّة المراد بهم اليهود والنصارى، والمراد بالكتاب هو ما أنزل إليهم من ربهم، فقد أنزل على موسى التوراة، وأنزل على عيسى الإنجيل، فهم يفترقون عن بقية الأمم بأنهم أهل كتاب، وإن كانوا قد حرَّفوه، وأما من ليسوا أهل كتاب فقد سمَّاهم الله تعالى باسمين؛ سمَّاهم تارة: المشركين، وتارة: الذين لا يعلمون، فقال تعالى: ﴿لَمْ

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (٢٥٧٧)، من حديث أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تبَارَكَ وَتَعَالَى.

يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١]، وفي موضع آخر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]، يريد بهم سبحانه من ليسوا يهودًا ولا نصارى. وفي مواضع فصل طوائفهم فسمَّى سبحانه الصابئة والمجوس.

ونستنبط من هذا النداء أننا نحن أصحاب المبادرة إلى الحوار، وكلمة الحوار كلمة شاعت في العقود الأخيرة، والحوار هو المراجعة بين الطرفين، كما قال الله ﷻ: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ١]؛ فالتحاور هو المراجعة في الكلام، فنستنبط من قول الله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ﴾، أننا أصحاب المبادرة؛ لا ننتظر منهم أن يدعوننا، بل نحن أصحاب المشروع الدعوي الإيماني التوحيدي، فحري بنا أن نبادئهم بالدعوة.

﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾: ﴿كَلِمَةٍ﴾ نتفق نحن وإياكم عليها، هذه الكلمة لم يَدَعها الله تعالى لتفسير مفسر، ولا لقول فقيه، فتولى سبحانه تفسيرها وبيانها.

قوله: (﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾): فإذا خاطبنا اليهود والنصارى فخطابنا يجب أن ينطلق من هذا المضمون، كما أمر الله نبيه، وكما امتثل نبيه لأمر ربه، فحينما كتب إلى هرقل قال: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ، و**﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا

وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[١]. فكتب النبي ﷺ له هذه الآية بنصها؛ امتثالًا لأمر ربه، وهكذا صنع مع نصارى نجران، وهكذا صنع مع اليهود في المدينة.

كانت دعوة النبي ﷺ وحواره لأهل الكتاب تنطلق من هذه الآية: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾؛ لأن من لازم التوحيد نفي الشرك، وعدم اتخاذ الأرباب من دون الله؛ إذ أن القوم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، هذا هو مشروعنا وهذه هي دعوتنا التي نبادئ بها البشرية جميعًا، من لدن النبي ﷺ إلى يومنا هذا، ليس لنا مشروع سواه، فإن أبوا قال الله ﷻ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾، فليس صوابًا أن نبحث عن حل مشترك ولا أن نلتقي في منتصف الطريق، وأن نتنازل عن بعض عقائدنا وهم كذلك، ثم نصنع توليفة من دين مهجَّن! حاشا وكلا.

الدين دين الله لسنا أوصياء عليه حتى نفصِّله على مقاس معين، يجب علينا أن نمتثل أمر ربنا وأن ندعو الناس جميعًا إلى دين الله الذي فيه سعادتهم ونجاتهم، فإن هم استجابوا لذلك فحيهلا ومرحى، وإن أبوا فإنا نقول كما أمرنا ربنا: ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾، وعلى هذا سار أهل الإسلام من لدن النبي ﷺ عبر القرون يدعون إلى دين الإسلام واتباع محمد ﷺ.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٧)، ومسلم، رقم: (١٧٧٣)، من حديث ابن عباس عن أبي سفيان بن حرب رضي الله عنه مرفوعًا.

انتقل المصنف للشق الثاني من الشهادة، وإنما كانا ركنًا واحدًا مع تعدد المشهود به؛ لأنه لا يمكن إثبات شهادة أن لا إله إلا الله إلا بإثبات شهادة أن محمدًا رسول الله.

لا يمكن أن نعبد الله ﷻ ونحقق توحيد الألوهية إلا باتباع نبيه ﷺ، فلا انفكاك بين شقي الشهادة، كذلك لا يكون الإنسان متبعًا لرسول الله ﷺ حقًّا وصدقًا إلا وقد امتثل أعظم ما جاء به النبي ﷺ، وهو توحيد رب العالمين، فصارت الشهادتان ركنًا واحدًا لا ينفصل بعضه عن بعض.

قوله: (وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾): إي والله! من أنفسكم؛ يعني: من جنسكم، فلم ينزل الله تعالى ملكًا كما اقترح المقترحون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١]، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٩]، ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥]، لكن حكمة الله البالغة أن يكون النبي من جنس قومه يحس بما يحسون ويفعل بنفسه ما يأمرهم بفعله، فلذلك كان من أنفسهم وفي قراءة من (﴿أَنْفَسِكُمْ﴾)، من النفاسة لكن القراءة المشهورة من أنفُسكم.

قوله: (﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾)؛ أي: يعز عليه ما يشق عليكم، ويعنتكم.

قوله: (﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾)؛ أي: أنه شديد الشفقة ﷺ على أمته، فيحرص على دلالتهم على الخير، وعلى تجنيبهم الشر. وقد كان! فإنه ﷺ كما وصفه ربه: **بقوله: (﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾)**،

ففي قلبه من الشفقة على أمته ما لا تتسع له العبارات، ذو رأفة وذو رحمة.

وفي هذا دلالة على جواز أن يسمى غير الله باسم من أسماء الله تعالى على اعتبار أن ما لله يليق به، وما للمخلوق يليق به.

فنصِفُ النبي ﷺ بأنه رؤوف رحيم، مع أن الرؤوف من أسماء الله الحسنى والرحيم، ولا تعارض؛ لأن الرأفة والرحمة وسائر الصفات معنى مشترك، وهذا الاشتراك يكون مطلقًا في الأذهان، فإذا أضيف تخصَّص، فإذا قيل: رحمة الله فهي رحمة تليق به، وإذا قيل: رحمة الأم صارت رحمة معهودة.

إذًا، لا إشكال أن يطلق على المخلوق اسم أو وصف مما يسمَّى الله به أو يوصف به، على اعتبار أن ما لله يليق به، وأن له منه المثل الأعلى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، وأن ما للمخلوق يليق به.

فقد كان لنبينا ﷺ من الرأفة والرحمة بأمته أعلى ما يمكن أن نتصوره من البشر، وشواهد هذا كثيرة، وكتب السيرة زاخرة بكمال شفقة النبي ﷺ على أمته.

ثم بيَّن معنى الشهادة **بقوله: (وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَنْ لَا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ)**:

كنت أود لو ابتدأ بأمر التصديق لكي تكون الطاعة والاجتناب على نسق. فلا بد أن نصدقه فيما أخبر، ونطيب به نفسًا ونقر به عينًا، ولا نعرضه على الاحتمالات، أو نقول هذا تحت محل بحث ونظر، لا يمكن أن يثبت إيمان إلا بأن يقطع الإنسان بصدق ما أخبر به النبي ﷺ.

ومثال ذلك: ما رواه ابن عباس ﵄ قال: «قال رسول الله ﷺ: **«لَمَّا كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِيَ بِي، وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ، فَظِعْتُ بِأَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِيَّ»**، فَقَعَدَ مُعْتَزِلًا حَزِينًا، قَالَ: فَمَرَّ بِهِ عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«نَعَمْ»**، قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: **«إِنَّهُ أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ»** قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: **«إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟»** قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: **«نَعَمْ»**، قَالَ: فَلَمْ يُرِه أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ، مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيث إِنْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«نَعَمْ»**، فَقَالَ: هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ حَتَّى قَالَ: فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ، وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ»**، قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: **« إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ»**، قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟» قَالَ: **«نَعَمْ»** ،قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ زَعَمَ قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ، وَرَأَى الْمَسْجِدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ، فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى الْتَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ»**، قَالَ: **«فَجِيءَ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عِقَالٍ أَوْ عُقَيْلٍ فَنَعَتُّهُ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»**، قَالَ: **«وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتٌ لَمْ أَحْفَظْهُ»** قَالَ: فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللهِ لَقَدْ أَصَابَ»[١].

---

(١) أخرجه أحمد، رقم: (٢٨١٩)، وحسنه الحافظ في فتح الباري (٧/ ١٩٩)، وصححه الشيخ أحمد شاكر، والعلامة الألباني في «الإسراء والمعراج وذكر =

والشاهد من هذه القصة أن بعض هؤلاء القوم انفضوا من المجلس وذهبوا إلى أبي بكر ﵁، فعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِذَلِكَ، فَارْتَدَّ نَاسٌ فيمن كَانَ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَسَمِعُوا بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ﵁، فَقَالُوا: هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَ: أَوَ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: أَوَ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقَ»(١). ومعنى ذلك أنه يصدقه في خبر السماء فمن باب أولى أن يصدقه فيما دون ذلك. فلأجل ذلك سُمّي بالصديق؛ فالصدِّيق هو المُبالغ في التصديق، يعني الذي بلغ الغاية في التصديق.

المثال الثاني: ما رواه الإمام البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**بَيْنَمَا رَاعٍ فِي غَنَمِهِ عَدَا عَلَيْهِ الذِّئْبُ، فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً فَطَلَبَهُ الرَّاعِي، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الذِّئْبُ فَقَالَ: مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ، يَوْمَ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ غَيْرِي؟ وَبَيْنَمَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا، فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَكَلَّمَتْهُ، فَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا وَلَكِنِّي خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ**» قَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَإِنِّي أُومِنُ بِذَلِكَ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ بْنُ**

= أحاديثهما وتخريجها وبيان صحيحها» (ص٨٢)، وقال محققو مسند أحمد طبعة الرسالة (٥/ ٢٩): «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم: (٤٤٠٧)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»، ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٦١٥)، رقم: (٣٠٦).

الخَطَّابِ»[١]، هذان هما! حكم عليهما النبي ﷺ غيابيًّا بأنهما يصدِّقان خبره! وكثير من الناس يدعى (العقلاني) فإذا جاءه حديث بالأسانيد الجياد، قالوا: لا بد من إخضاعه للعقل والنظر والتأويل، مثال ذلك حديث: **«إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ، فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءً وَالأُخْرَى شِفَاءً»**[٢].

فيزعم بعض العصرانيين والعقلانيين أن هذا الحديث ينفي قواعد الطب الحديث فلا ينبغي تصديقه! أين الإيمان إذًا؟! الإيمان بالغبطة في خبر الله ورسوله، وقبوله قبولًا مطلقًا، وإلا صار الانقياد للعقل، وليس الانقياد للنص.

فيجب تعظيم النصوص، وإذا جاء نهر الله بطل نهر العقل، إذا جاء الخبر عن الله أو عن رسوله ﷺ فلا تجعل بإزائهما شيئًا؛ ولهذا قال العلماء: القياس في مقابلة النص فاسد الاعتبار.

قوله: (طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ)؛ أي: امتثال ما أمر به النبي ﷺ؛ فإن هذا هو مقتضى الشهادة، وما يأمر به النبي ﷺ على ضربين: إما على سبيل الإلزام، وإما على سبيل الاستحباب. فما كان على سبيل الإلزام فإن الفقهاء والأصوليين يسمونه واجبًا، وما كان على سبيل الاستحباب يسمونه مندوبًا، فإذا جاءك أمر رسول الله ﷺ فليكن همك أن تمتثل، ولا تقل: أواجب هو أم سنة؟ كما يسأل كثير من الناس الآن، كأنما المسألة مماكسة. إذا جاءك الأمر فاقبله، ثم بعد ذلك إن عجزت عنه أو شق عليك، فانظر: هل هو على سبيل الإلزام أو على سبيل الاستحباب؟

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٣٦٦٣)، ومسلم، رقم: (٢٣٨٨).

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٣٣٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

قوله: (وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ): فما نهى عنه النبي ﷺ وزجر عنه فالواجب في حقنا اجتنابه. وهذا المنهي عنه أيضًا عند الأصوليين والفقهاء: إما أن يقع على سبيل الإلزام بالترك، أو على سبيل الكراهية؛ **فالأول** يسمونه محرمًا، **والآخر** يسمونه مكروهًا، فما نهى عنه النبي ﷺ سواء نهي تحريم أو كراهة فالذي ينبغي لنا أن نجتنبه، ولا نماكس ولا نستفصل، وقد جاء في الحديث الصحيح: «... **فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»[1].

قوله: (وَأَنْ لَا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ): قد يقول قائل: لا بأس ببعض الإضافات التي أُدخلها وأتعبد لله بها، كلا، الدين ليس مزادًا علنيًّا، ليس لأحد أن يزيد عليه أو ينقص، إن زدت على هذا الدين فقد وقعت في البدعة؛ لأن في هذا تهمة مبَّطنة للنبي ﷺ أنه قد قصَّر في البلاغ، وأن ثَمَّ أمورًا مستحسنة كان ينبغي أن يدل الأمة عليها ولم يفعل.

هذا معنى أن تتعبد لله بأمر لم يشرعه النبي ﷺ؛ ولذا قال نبينا ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[2]، وفي لفظ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[3]، وقد ضل كثير من المسلمين في باب الاتباع، وظنوا أن بوسعهم أن يحدثوا في الدين ما تزينه عقولهم ويستحسنه رأيهم، وهذا بدعة.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٧٢٨٨)، ومسلم، رقم: (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٢٦٩٧)، ومسلم، رقم: (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا.

(٣) أخرجه مسلم، رقم: (١٧١٨).



والبدعة ـ كما عرَّفها الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ هي: «طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه»[1].

قوله: تضاهي الشريعة؛ أي: صفتها وصورتها مثل الأمور المشروعة.



(١) الاعتصام، للشاطبي، ت: الهلالي (١/ ٥٠).

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥].

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣].

وَدَلِيلُ الحَجِّ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٧﴾ [آل عمران: ٩٧]).

الشَّرْح

الركن الثاني

بعد أن ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ دليل الشهادتين أتبع ذلك باقي أركان الإسلام.

قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾: مرجع الضمير في قوله: ﴿أُمِرُوٓاْ﴾، إلى أهل الكتاب؛ لأنه قال قبلها: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝٤﴾ [البينة: ٤]، فدل ذلك على عظم هذه الثلاثة:

التوحيد في قوله: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾؛ أي: مائلين عن الشرك إلى التوحيد.

والصلاة في قوله: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فما أعظم أمر الصلاة! حيث جعلها الله تعالى رديف التوحيد.

والصلاة في اللغة: الدعاء. ولهذا قال الأعشى:

تقول بُنيتي وقد قَرَّبْتُ مرتحلًا   يا ربِّ جَنِّبْ أبي الأَوْصابَ والوَجَعَا
علَيكِ مثلُ الذي صَلّيتِ، فاغتَمضي   نَومًا، فإنّ لجَنبِ المرءِ مُضطجعَا[1]

قوله: عليك مثل الذي صلَّيت؛ أي: مثل الذي دعوت.

أما في الاصطلاح، فإن الصلاة عبارة عن: «عبادة ذات أقوال وأفعال مخصوصة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم»[2]. وبَسْطُ ذلك في كتب الفقه.

لكن تأملوا أن الله تعالى لم يأمر بالصلاة وحسب؛ بل أمر بإقامة الصلاة.

بقوله: ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ أي: يؤدونها على وجه الاستقامة؛ بشرائطها، وأركانها، وواجباتها، وسننها.

الركن الثالث

قوله: ﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: **معنى الزكاة في اللغة**: الطهارة والنماء، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩]؛ أي: زكى نفسه وطهرها.

أما في الاصطلاح فهي: التعبد لله ﷻ بإخراج حق واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة ـ وهم مصارف الزكاة الثمانية ـ في وقت مخصوص[3].

---

(١) ينظر: جمهرة أشعار العرب (ص١٨)، والانتماء في الشعر الجاهلي (١/ ١٥٤).

(٢) ينظر: المبدع في شرح المقنع (١/ ٢٦٣).

(٣) ينظر: الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (١/ ٢٤٢).

وأمر الزكاة عظيم؛ فإن الله تعالى دائمًا يقرن الصلاة بالزكاة؛ ولهذا حارب أبو بكر الصديق المرتدين لما فرقوا بين الصلاة والزكاة، وقال: «وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ؛ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ. وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ»[1]، وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقال: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، فهذا يدل على أن عصمة المال والدم، مقرون بالتوحيد وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

قوله: (وَدَلِيلُ الصِّيَام؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾).

الركن الرابع

قوله: ﴿كُتِبَ﴾؛ أي: فرض. ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، في هذا إيناس لهذه الأمة، أنكم لستم وحدكم كلفتم بهذه العبادة؛ بل قد سبق هذا لمن كان قبلكم من الأمم، وحتى يكون في ذلك حافز لهم. ثم بيَّن ثمرة الصيام وفائدته بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾؛ ولذا قال نبينا ﷺ: **«مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»**[2].

الصوم في اللغة: الإمساك، كما قالت مريم رضي الله عنها: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٧٢٨٥)، ومسلم، رقم: (٢٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (١٩٠٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

﴿لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ۝٢٦﴾ [مريم: ٢٦]، وتقول العرب: صامت الأرض عليه؛ أي: أمسكته. وقال الشاعر:

خيلٌ صِيامٌ وخيلٌ غيرُ صائمةٍ تحتَ العَجاجِ وخيلٌ تَعْلِكُ اللُّجُما[١]

خيلُ صيامٌ؛ أي: ممسكةٌ عن الجريان.

وأما تعريف الصيام اصطلاحًا فهو: التعبد لله بالإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس[٢].

قوله: (وَدَلِيلُ الْحَجِّ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٩٧﴾).

الركن الخامس

وأما الحج فهو خامس الأركان، وهو لغة: القصد.

واصطلاحًا هو: التعبد لله تعالى بقصد مكة لعمل مخصوص في زمن مخصوص. وقد ختم الله تعالى الأمر به بقوله: (﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾)، مع أن الاستطاعة مطلوبة في كل عبادة؛ لكن لما كان أمر الحج شاقًّا من الناحية البدنية والمالية، نوَّه الله تعالى بذكر الاستطاعة، ثم ختم الآية بقوله: (﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٩٧﴾)، وقد قال بعض السلف أن من ترك الحج مع قدرته عليه يكون كافرًا. ويروى في هذا آثار عن عمر رضي الله عنه، وعن علي رضي الله عنه.

والصحيح أن هذه الأركان الخمسة فرائض مكتوبة، وأن الإنسان لا

---

(١) من شعر النابغة، ينظر: ديوان النابغة (ص١٣٥)، تحقيق: د. عمر الطباع، طبعة دار القلم.

(٢) ينظر: المغني، لابن قدامة (٣/ ١٠٥).

يكفر بترك شيء منها إلا الشهادتين، والصلاة؛ أما الشهادتان فإجماع، ولا شك.

وأما الصلاة فقد اختلف العلماء في هذا، وذهب الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجمعٌ من السلف إلى أن تارك الصلاة ولو تكاسلًا وتهاونًا كافر كفرًا مخرجًا عن الملة.

وذهب الأئمة الثلاثة إلى أنه كافر كفرًا أصغر.

والراجح في هذا هو ما ذهب إليه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأدلة مبسوطة في كتب الفقه.

وأما الزكاة فقد قال بعض العلماء أن تاركها يكفر؛ لأن الله قرنها بها في آية براءة: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، فمن لم يكن كذلك فليس أخًا لنا في الدين، وهذا لا شك أنه استنباط قوي، إلا أنه يشكل عليه حديث مانع الزكاة الذي فيه: «**مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ**»(١)، فدل ذلك على أن مانع الزكاة لا يكفر بذلك.

وأما الصوم والحج فلا يكفر من تركهما.



(١) أخرجه مسلم، رقم: (٩٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ، وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلاهَا قَوْلُ لا إِلٰه إِلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ.

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: كما في الحديث: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[(١)].

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]).

❁ الشَّرْح ❁

المرتبة الثانية: الإيمان

لما فرغ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من المرتبة الأولى من مراتب الدين: وهي الإسلام؛ ثنَّى بما ثنَّى به نبينا ﷺ وجبريل في الحديث المشهور، وهو الإيمان. والإيمان إذا ذُكر قد يراد به الإيمان الذي بمعنى الدين كله، وقد يراد به الإيمان الذي هو الأعمال الباطنة؛ فإذا ذُكر الإيمان مع الإسلام في نصٍّ واحد، فإن الإسلام يعني: الشرائع الظاهرة، والإيمان

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٥٠)، ومسلم، رقم: (٨).

يعني: العقائد الباطنة، وإذا ذكر كل منهما في نصٍّ مستقل؛ فإن كل منهما يدل على الدين كله، إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا؛ أي: إذا اجتمعا في نص واحد فإن الإسلام يعني: الشرائع الظاهرة، والإيمان العقائد: الباطنة، كما في حديث جبريل، فقد فسر النبي ﷺ فيه الإسلام بأنه أركان الإسلام الخمسة التي هي شرائع ظاهرة: النطق بالشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وفسَّر الإيمان بالعقائد الباطنة فقال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1]، أما إذا ذُكر الإسلام منفردًا؛ فإنه يتضمن الإيمان؛ لأنه يعني: الدين كله كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وإذا ذُكر الإيمان منفردًا؛ فإنه يدل على الدين كله المتضمِّن للإسلام، ولأجل ذا فإن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لما أراد أن يعرِّف المرتبة الثانية الإيمان ذكر التعريف العام والتعريف الخاص.

قوله: (**الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ، وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلاهَا قَوْلُ لا إِلٰه إِلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**). كما قال النبي ﷺ، ثم بعد ذلك عدَّد أركانه.

والإيمان في اللغة: معناه التصديق؛ لكنه تصديق مقرون بائتمان وإقرار وانقياد وإذعان؛ فهو ليس تصديقًا مجردًا؛ فالإيمان في اللغة: التصديق المقترن بالإقرار والإذعان.

وأما معناه في الاصطلاح؛ فهو قول باللسان، واعتقاد بالجَنان، وعمل بالأركان، وهذا هو معنى قول العلماء: الإيمان قول وعمل؛ فالإيمان له حقيقة مركَّبة من القول والعمل، ليس الإيمان مجرد القول،

---

(١) سبق تخريجه في (ص١٣٢).

ولا مجرد العمل؛ بل الإيمان قول وعمل؛ ولهذا أخبر النبي ﷺ بأن له شعبًا كثيرة، قال: «**فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إلٰه إلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ**»[(١)]، فلا يتم إيمان امرئ مسلم إلا بأن يعتقد بجَنانه، ويتلفظ بلسانه، ويعمل بأركانه؛ فالقلب يتعلق به قول وعمل، واللسان يتعلق به قول وعمل، والجوارح يتعلق بها عمل.

وبيان ذلك:

قول القلب: المراد به اعتقاده؛ يعني: ما ينعقد عليه القلب من العلوم الصحيحة والمعارف الصائبة؛ كأن تعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له، أرسل رسلًا، وأنزل كتبًا، وجعل يومًا آخِرًا وجنة ونارًا، هذه عقيدة قلب، وهذا قول القلب.

عمل القلب: هو ما يتحرك به القلب من النيات والإرادات؛ كالمحبة، والخوف، والرجاء.

ففرق بين قول القلب وعمله: فقول القلب: هو الاعتقاد، وعمل القلب: هو ما ينبض به القلب من العبادات القلبية؛ كالمحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والإنابة، والاستعانة وغيرها.

قول اللسان: المقصود به: الإعلان بالشهادتين؛ فلا نحكم بإسلام أحد حتى يلفظ بلسانه: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

عمل اللسان: ما زاد على ذلك: من التلاوة، والدعاء، والذكر،

---

(١) أخرجه مسلم بهذا اللفظ، رقم: (٣٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ـ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ ـ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»، وأخرجه بنحوه مختصرًا البخاري، رقم: (٩).

والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، والقول الحسن، وعموم الكلم الطيب.

أعمال الجوارح: ما تقوم به الجوارح من حركات تعبدية: كالقيام، والركوع، والسجود في الصلاة، وكالوقوف بعرفة، ورمي الجمار، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة في الحج.

فلا يكون إيمان إلا بالقول والعمل؛ قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، بهذا تتم منظومة الإيمان؛ فلو قال إنسان: أنا قد صدقت بأن الله حق، ووعده حق، والنبيون حق، والجنة والنار حق، لكن لا عمل؛ لن أفعل الطاعات، ولن أجتنب المحرمات مطلقًا، فلا نثبت له إيمانًا؛ لأن الإيمان حقيقته مركَّبة من قول وعمل، فلا بد من القول والعمل معًا؛ لكن هذا لا يلزم أن يأتي بجميع أعمال الجوارح؛ فإذا كان في القلب عقيدة فلا بد أن تثمر عملًا.

فقوله: (أعلاها قَوْلُ لا إِلٰه إِلا اللهُ): تشمل اعتقاد القلب؛ ونطق اللسان.

وقوله: (وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ): هذا عمل جوارح.

وقوله: (وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ): هذا عمل القلب.

وبهذا يتبين لنا أن الإيمان يشمل الدين كله بهذا الاعتبار.

أما التعريف الخاص للإيمان؛ فإنه العقائد القلبية التي فسرها النبي ﷺ في حديث جبريل بقوله: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[١].

وهذه العقائد القلبية هي شجرة الإيمان التي قال الله عنها: ﴿أَلَمْ تَرَ

---

(١) سبق تخريجه (ص١٣٢).

كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، ومن أحسن التقاسيم التي مرت عليّ في بيان شجرة الإيمان تقسيم شيخنا محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه المسألة:

شجرة الإيمان: ويتفرع منها ستة فروع، وكل فرع من هذه الفروع الستة يتفرع منه أربعة أغصان، وبهذا سيخرج معنا في النهاية أربعة وعشرون غصنًا، وكل هذا من باب تقريب العلم؛ لأن النبي ﷺ قال: «**الإيمان أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1]؛ فهذه ستة أركان.

الركن الأول: الإيمان بالله: لا يتم إيمان امرئ بالله حتى يؤمن بأربعة أشياء:

أولًا: الإيمان بوجوده سبحانه؛ وهو الاعتقاد الجازم بوجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا أمر فطري، ولا ينازع في هذا الأمر إلا الملاحدة المنكرون لوجود الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثانيًا: الإيمان بربوبيته: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الخالق المالك المدبر، وينازع في هذا: منكرو الربوبية: كفرعون الذي قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣]، وكالنمرود الذي قال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ثالثًا: الإيمان بألوهيته: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، وينازع في هذا: المشركون الذين يصرفون شيئًا من أنواع العبادة لغير الله.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٣٢).

رابعًا: الإيمان بأسمائه وصفاته، وهو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١]، وينازع في هذا: صنفان من الناس:

المعطلة: الذين ينكرون أسماء الله وصفاته، كلها أو بعضها.

والممثلة: الذين يثبتونها على وجه يماثل المخلوقين.

أما أهل السُّنَّة؛ فإنهم يثبتون إثباتًا بلا تمثيل، وينزهون الله تنزيهًا بلا تعطيل.

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة، ولا يتم إيمان امرئ بالملائكة حتى يؤمن بأربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بوجود الملائكة، وأنهم خلق حقيقي، خلقهم الله تعالى من نور، وينازع في هذا: الماديون الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوسات ولا يؤمنون بالمغيبات، أو الذين يزعمون بأن الملائكة قوى معنوية وليست أجسامًا حقيقية.

الأمر الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم، ومن لم نعلم اسمه فإننا نؤمن به إجمالًا، من علمنا اسمه منهم مثل: جبريل، ميكائيل، إسرافيل، ملك الموت، منكر، نكير؛ فهؤلاء نؤمن بهم بأسمائهم، ومن لم نعلم اسمه منهم فإننا نؤمن به إجمالًا؛ لأن ملائكة الله كثر لا يحصيهم عد، ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: ٣١]؛ وقد أخبر النبي ﷺ: «**رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ**»[1]؛ يعني: لا تأتيهم النوبة مرة أخرى، وهذا يدل على

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٣٢٠٧)، من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ =

كثرتهم، وقال النبي ﷺ: «**إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ**»[(١)]، **والأطيط**: هو الصوت الذي يُسمع حينما يثقل الرحل بالراكب، فيسمع للسيور والجلد صوت بسبب الثقل.

الأمر الثالث: الإيمان بما علمنا من صفاتهم، ذلك أن الملائكة عالم غيبي لم نره بأعيننا؛ لكن الله تعالى أخبرنا عن بعض صفاتهم؛ فقال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]، وأخبر النبي ﷺ أنه رأى جبريل وله ستمائة جناح[(٢)]، كل جناح قد سد الأفق؛ لعظم خلقه عليه الصلاة والسلام، وقال في حديث آخر: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ**»[(٣)].

= صَعْصَعَةَ رضي الله عنهما مرفوعًا، ومسلم، رقم: (١٦٢)، من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مرفوعًا.

(١) أخرجه الترمذي، رقم: (٢٣١٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه مرفوعًا، وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وصححه الحاكم في المستدرك، رقم: (٣٩٠٥)، وقال محققو مسند أحمد، ط. الرسالة (٣٥/ ٤٠٥): «حسن لغيره بهذه السياقة، وهذا الإسناد رجاله ثقات رجال الشيخين إلا أنه منقطع، فإن مورِّقًا العجلي لم يسمع من أبي ذر»، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٢٩٩)، رقم: (١٧٢٢).

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٣٢٣٢)، ومسلم، رقم: (١٧٤)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) أخرجه أبو داود، رقم: (٤٧٢٧)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وقال ابن كثير كما في تفسيره، ت: سلامة (٨/ ٢١٢): «وهذا إسناد جيد، رجاله =

الأمر الرابع: الإيمان بما علمنا من وظائفهم وأعمالهم، وقد أخبرنا الله ﷻ عن عبادة مشتركة بين جميع الملائكة: وهي الاجتهاد في العبادة، فقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، فقد أُلهموا التسبيح وأعطاهم الله ﷻ القوة على عبادته، كما قالوا: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠]، فهذا دأبهم وهذا عملهم؛ فنفوسهم زكية ليس فيها نزعة إلى الشر مطلقًا؛ فالتسبيح وظيفتهم المشتركة، لكن لهم وظائف متخصصة كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾ [الصافات: ١٦٤ ـ ١٦٦]، وقال الله تعالى ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾ [النازعات: ١ ـ ٥]، هذه طوائف من الملائكة مكلفة بأعمال معينة.

ومن أعمالهم:

كتابة الأعمال: فقد أخبر الله تعالى أنهم: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: ١٧، ١٨].

عمل ملك الموت الذي يقبض الأرواح: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [السجدة: ١١].

عمل الملك الذي يتسور على الجنين في بطن أمه؛ فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد.

= ثقات»، وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري، لابن حجر (٨/ ٦٦٥)، وقال: «إسناده على شرط الصحيح». وصححه الألباني في مختصر العلو للعلي العظيم (ص١١٤)، رقم: (٧٥).

المعقِّبات: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١].

وأشرف أعمالهم: أمانة الوحي، وهذه مهمة جبريل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

عمل ميكائيل: وهو إنزال القطر من السماء، وإنبات الأرض.

عمل إسرافيل: وهو النفخ في الصور؛ فتعود الأرواح إلى الأجساد التي كانت تعمرها في الدنيا.

وبالجملة، فملائكة الرحمٰن قد أسندت إليهم مهام متعددة متنوعة متخصصة؛ فنؤمن بما صح به الخبر.

الركن الثالث: الإيمان بالكتب، ولا يتم إيمان امرئ بالكتب حتى يحقق أمورًا أربعة:

الأمر الأول: الإيمان بأنها منزلة من عند الله حقًّا: هذه الكتب ليست كلام آدمي؛ بل هي وحي يوحى أنزله الله تعالى على أنبيائه، فهذه أعظم خصيصة لها.

الأمر الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه، وما لم نعلم اسمه فإننا نؤمن به إجمالًا، فالذي نعلمه من كتب الله: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، وصحف إبراهيم، وصحف موسى على خلاف؛ هل صحف موسى هي التوراة، أو سواها؟ فما علمنا اسمه آمنَّا به باسمه، لا نسميه كما تسميه النصارى واليهود: العهد القديم، والعهد الجديد؛ بل: التوراة والإنجيل.

الأمر الثالث: الإيمان بما صح من أخبارها، وهذه مسألة مهمة، وذلك أن كتب الله ﷻ قد امتدت إليها يد التحريف سوى القرآن، فما

صح من أخبار الكتب الماضية وثبت فإننا نؤمن به، وما لا فلا، ونحن نعلم أن الله تعالى قد حفظ القرآن العظيم فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، أما ما تقدمه من الكتب؛ فقد أخبر الله تعالى عن أهل ذلك الكتاب: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩]؛ فتوعَّدهم؛ فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾ [البقرة: ٧٩].

وموقفنا من الإسرائيليات ـ وهي المأثور من كتب أهل الكتاب في التوراة وفي الإنجيل ـ لا يخلو من ثلاثة أحوال:

الحال الأولى: أن تكون موافقة لما جاء في كتابنا؛ فنؤمن به ونصدقه؛ لأن كتابنا يشهد له. فمثلًا: جاء في التوراة: ذكر الطوفان، وخروج موسى عليه السلام بقومه من مصر، وانشقاق البحر؛ فموقفنا من هذه الأخبار: أن نؤمن بها ونصدق؛ لأن كتابنا جاء مؤيدًا لها مصدقًا لها، وإن كان لا يلزمنا الإيمان بالتفاصيل التي يذكرونها؛ لكن نؤمن بأصل القضية.

الحالة الثانية: أن تكون مخالفة لما جاء في كتابنا؛ فنرده ونرفضه ونعلم أنه مما حرَّفوه وكتبوه بأيديهم؛ فمثلًا: جاء في كتبهم ـ والعياذ بالله ـ أن لوطًا عليه السلام شرب الخمر وزنى بابنتيه ـ وحاشاه ﷺ ـ.

الحال الثالثة: أن لا يكون في كتابنا ما يصدقه وما يكذبه؛ فحينئذٍ لا نصدق ولا نكذب ونقول: آمنا بما أنزل الله من كتاب، وهذا كثير جدًّا وغالبه لا طائل من ورائه؛ كأن يختلفوا في اسم الكلب الذي تبع أهل الكهف، وصفته، ولونه... وما إلى ذلك؛ فهذا مما لا حاجة لنا به، ولكننا لا نصدق ولا نكذب، والمنهج في هذا النوع: هو جواز

الرواية والتحديث به؛ لقول النبي ﷺ: **«وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»**[١]، ولكن لا نقطع بثبوته ولا بنفيه كما في الحديث: **«مَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنْ كَانَ بَاطِلًا لَمْ تُصَدِّقُوهُ، وَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُ»**[٢].

فمنهج السلامة أن لا نتسرع بتصديق ولا تكذيب، أما ما شهد كتابنا بصحته؛ فإنا نؤمن به لثبوت ذلك في كتابنا، وما شهد كتابنا ببطلانه؛ فإننا نرفضه لأن كتابنا شهد بنقضه.

الأمر الرابع: هو العمل بالشرع المنزل إلينا في كتابنا؛ لأن القرآن العظيم ناسخ للكتب السابقة مهيمن عليها، وذلك أن الله تعالى في سورة المائدة ـ لما ذكر التوراة ثم ذكر الإنجيل ـ قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، ومعنى مهيمنًا عليه: أي: حاكمًا وقاضيًا وناسخًا؛ فلا يجوز لأحد أن يعمل بشريعة التوراة ولا بشريعة الإنجيل؛ لكن إن أقر شرعنا ما جاء في التوراة أو الإنجيل فإننا نعمل به؛ لإقرار شرعنا له.

مثال ذلك: قوله تعالى عن التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، فهذا مكتوب في التوراة وأقره شرعنا وزاد عليه: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥].

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٣٤٦١)، من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٢) أخرجه أبو داود، رقم: (٣٦٤٤)، من حديث ابْنِ أَبِي نَمْلَةَ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه مرفوعًا، وصححه ابن حبان في صحيحه، رقم: (٦٢٥٧)، وقال الأرناؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان (١٤/ ١٥١): «إسناده قوي، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير نملة، فقد روى عنه جمع، وذكره المؤلف في الثقات».

الركن الرابع: الإيمان بالرسل، ولا يتم إيمان امرئ بالرسل حتى يحقق أمورًا أربعة:

الأمر الأول: الإيمان بأن رسالتهم من عند الله حقًّا؛ يعني: وقعت اصطفاءً واختيارًا من الله ﷻ، وأن النبوة لا تحصل بالرياضة والمجاهدة ـ كما زعم ذلك زنادقة الصوفية ـ؛ تسمو النفس وتصل إلى مرتبة النبوة! بل النبوة والرسالة اصطفاء من الله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٧٥﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وذم الله تعالى المشركين أن قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

الأمر الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه من رسل الله باسمه، ومن لم نعلم اسمه؛ فإننا نؤمن به إجمالًا. ورسل الله كثر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ۝٢٤﴾ [فاطر: ٢٤]، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٣٦﴾ [النحل: ٣٦]، وقد ورد من أسماء الأنبياء والمرسلين في القرآن العظيم خمسة وعشرون نبيًّا رسولًا؛ فهؤلاء نؤمن بهم بأسمائهم، أما من لا نعلم اسمه منهم؛ فإننا نؤمن بأن الله تعالى قد بعث في كل أمة رسولًا وكفى؛ فإذا مرت بنا بعض الأسماء التي في كتب أهل الكتاب مثل أشعياء، أرميا، حزقيال... إلى غير ذلك؛ فإننا لا نقطع بذلك؛ لكن نؤمن أن الله تعالى بعث رسلًا كثرًا إلى أقوامهم.

الأمر الثالث: تصديق ما صح من أخبارهم، لا يوجد سند متصل إلى نبي من أنبياء الله إلا إلى رسول الله ﷺ؛ فإن هذه الأمة قد مَنَّ الله

تعالى بها عليها بالرواية بالأسانيد المتصلة إلى رسول الله ﷺ، ولا تجد هذا في الأمم الأخرى، فقد درست أسانيدها. لكن ربما حدثنا نبينا بشيء من ذلك، كقوله ﷺ: **«إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأولى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ»**(١)، فضلًا عما تضمنه القرآن من أخبارهم.

الأمر الرابع: العمل بشريعة من بُعث إلينا منهم، وهو نبينا محمد ﷺ؛ فنحن وجميع البشر مأمورون باتباع شريعة محمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨]؛ فلا يسعُ أحدًا بعد بعثة محمد ﷺ إلا أن يتبعه، وتعجب حينما تجد من الناس؛ بل من بعض من ينتسب إلى الإسلام، من يسوغ لليهودي وللنصراني أن يبقى على يهوديته أو نصرانيته ويقول: كلٌّ يعبد الله كما يشاء! أين هذا من قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»**(٢).

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر، ولا يتم إيمان امرئ باليوم الآخر حتى يحقق أمورًا أربعة:

الأمر الأول: الإيمان بما يكون في القبر؛ قال شيخ الإسلام: «ومن

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٣٤٨٣)، من حديث أبي مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) أخرجه مسلم، رقم: (١٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت: فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر وبنعيمه»[١].

والذي يكون في القبر أمران:

الأمر الأول: **فتنة القبر**: والمراد بها سؤال الملكين للميت عن دينه وربه ونبيه؛ لأن الفتنة معناها **في اللغة**: الاختبار، كما يقال: فتن الصائغ الذهب إذا أدخل الذهب المشوب بالمعادن الأخرى في النار؛ فلا يبقى إلا الذهب الخالص، وقد قال النبي ﷺ: «**وَإِنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ قَرِيبًا، أَوْ مِثْلَ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ...**»[٢].

الأمر الثاني: **نعيم القبر أو عذابه**: وذلك أن المؤمن ينعم في قبره إلى أن تقوم الساعة، والكافر يعذب في قبره إلى أن تقوم الساعة.

الأمر الثاني: الإيمان بالبعث: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى يُخرج الناس من قبورهم يوم القيامة حفاة: غير منتعلين، عراة: غير مكتسين، غُرلًا: غير مختونين، بُهمًا: ليس معهم شيء، وهو بعث جسماني لا كما يدعي بعض الملاحدة أنه بعث روحاني؛ بل هو بعث بالروح والبدن معًا، ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر: ٦ ـ ٨].

الأمر الثالث: الإيمان بالحساب: وهو الاعتقاد الجازم أن الله سبحانه وتعالى يحاسب الناس يوم القيامة.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٥).

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٨٦)، ومسلم، رقم: (٩٠٥)، من حديث أسماء رضي الله عنها مرفوعًا.

والحساب نوعان: حساب المؤمنين وحساب الكافرين:

فأما حساب المؤمنين؛ فهو على نوعين أيضًا: **أحدهما** العرض، **والثاني** المناقشة:

فالعرض يكون لمن سبقت له من الله الحسنى ممن أراد الله كرامته، ويدل عليه حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ**»(١)، فما أسعده! وما أهنأه! فقد زُحزح عن النار وفاز.

أما المناقشة: فهي التي تكون لعصاة الموحدين الذين ارتكبوا كبائر لم يشأ الله تعالى أن يغفرها؛ بل أراد أن يعذبهم عليها بقدرها ثم يؤولون إلى الجنة.

والدليل على هذا التقسيم: أن النبي ﷺ قال يومًا: «**لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إِلَّا هَلَكَ**» قَالَتْ عائشة: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]، قَالَ: «**ذَاكَ الْعَرْضُ يُعْرَضُونَ، وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ**»(٢)؛ يعني: من يُدقق معه في المحاسبة؛ دليل على أنه سيعذب بذنبه ـ أجارنا الله وإياكم ـ.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٢٤٤١)، ومسلم، رقم: (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٤٩٣٩)، ومسلم، رقم: (٢٨٧٦)، واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا.

أما حساب الكافرين؛ فليس حساب من توزن حسناته وسيئاته؛ لأنه لا حسنات لهم أصلًا، وإنما يقررون بذنوبهم؛ فيعترفون بها على رؤوس الأشهاد ثم يلقى بهم في النار.

الأمر الرابع: الإيمان بالجنة والنار: أن الجنة حق، وأن النار حق؛ فالجنة هي الدار التي أعدها الله لأهل كرامته، والنار هي الدار التي أعدها الله لأهل مهانته، وأن في الجنة من صنوف النعيم الحسي والمعنوي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأن في النار من صنوف العذاب الحسي والمعنوي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ـ أجارنا الله وإياكم ـ.

الركن السادس: الإيمان بالقدر، ولا يتم إيمان امرئ بالقدر حتى يحقق أمورًا أربعة:

الأمر الأول: الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء، جملة وتفصيلًا، أزلًا وأبدًا، ما كان وما يكون، وما سوف يكون، وما لم يكن كيف لو كان يكون، سواء ما تعلق بأفعاله سبحانه، أو ما تعلق بأفعال عباده، فيعتقد اعتقادًا جازمًا بأن الله لا تخفى عليه خافية، وأنه علم ما الناس عاملون، من خير وشر وطاعة ومعصية، كما علم أرزاقهم وآجالهم.

الأمر الثاني: الإيمان بكتابة الله تعالى لعلمه ذلك في اللوح المحفوظ، كما قال الله ﷻ: ﴿فِى لَوۡحٍ مَّحۡفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج: ٢٢]، وكما قال سبحانه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [الرعد: ٣٩]، الذي هو اللوح المحفوظ، وكما قال نبيه ﷺ في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»(١)، فلا يتحرك متحرك ولا

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (٢٦٥٣).

يسكن ساكن إلا وقد كتبه الله تعالى قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة حتى العجز والكيس، حتى الصفات النوعية للناس من كون بعضهم فيه صفة العجز، وبعضهم فيه صفة الحزم، وفي الحديث: **«إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»**(١).

الأمر الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا يكون شيء إلا بمشيئته.

الأمر الرابع: الإيمان بخلقه سبحانه لجميع الأشياء، ذواتها وصفاتها وحركاتها؛ فالله الخالق، وما سواه مخلوق، ليس العبد يخلق فعل نفسه، الله خالق كل شيء، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢].

الدليل على مسألة الإيمان في القرآن العظيم: لو نظرنا في القرآن العظيم؛ لوجدنا أن الله ﷻ قد ذكر خمسة من الأركان مجتمعة في موضعين؛ فقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

ودليل القدر: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾، وفي آية أخرى قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝١٣٦﴾ [النساء: ١٣٦]، وفي آخر سورة البقرة ذكر

---

(١) أخرجه أبو داود، رقم: (٤٧٠٠)، والترمذي، رقم: (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعًا، وصححه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٨/ ٢٧٤)، رقم: (٣٣٦)، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم: (٢٠١٧).

أربعة منها: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، أما حديث جبريل؛ فقد جمع الستة.



❁ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ:

(الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الْإِحْسَانُ رُكْنٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ).

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: «حَدِيثُ جِبْرِيلَ» الْمَشْهُورُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِي ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ. قَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللّٰهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى

الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا. فَقَالَ: «يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ».

الشَّرْح

المرتبة الثالثة: الإحسان

المرتبة الثالثة هي الإحسان، وقد عرَّفها النبي ﷺ: **«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»**[(١)]؛ فالإحسان مرتبة أخص من الإيمان، ومعنى **الإحسان في اللغة**: الإتقان، **«إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»**[(٢)]، وقد فسَّره النبي ﷺ بمرتبتين:

المرتبة الأولى: أن تعبد الله كأنك تراه.

المرتبة الثانية: فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك.

قال العلماء[(٣)]: **المرتبة الأولى**: مرتبة الطلب، **والمرتبة الثانية**: مرتبة الهرب، ومرتبة الطلب أشرف من مرتبة الهرب.

فالأولى: أن تعبد الله تعالى وأنت تسعى إليه مشتاقًا إليه منجذبًا إليه؛ فيكون أداؤك للطاعات والعبادات يحدوه حادي المحبة والرجاء.

فإن لم يصل الإنسان إلى هذه المرتبة العليا التي هي مرتبة العبادة: عبادة الفرِح المشتاق المنجذب إلى ربه ومعبوده؛ فإن دونها

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٥٠)، ومسلم، رقم: (٨).

(٢) أخرجه أبو يعلى الموصلي في المسند (٧/ ٣٤٩)، رقم: (٤٣٨٦)، عَنْ عَائِشَةَ مرفوعًا، وحسنه بشواهده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ١٠٦)، رقم: (١١١٣).

(٣) ينظر: شرح ثلاثة الأصول، لشيخنا العلامة العثيمين (ص١١٩).

وهي الثانية: أن يعبد الله بروح العبد المشفق الخائف من رقابة الله تعالى واطلاعه عليه، كما الموظف الذي يتقن عمله لعلمه أن رب العمل يطَّلع عليه، ولا شك أن كلًّا من هاتين الحالين يثمران إحسان العمل، فالذي يعبد الله كأنه يراه يتقنه ويحسنه ويكون هذا مصحوبًا بالشوق لله ﷻ، والذي يعبد الله وهو يشعر برقابته كذلك يتقنه؛ لأنه خائف من الله ﷻ.

وبذلك تمت مراتب الدين الثلاثة.

قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾).

هذه الأدلة الثلاثة من القرآن تدل الآيتان الأوليتان على معية الله تعالى لعبده المؤمن؛ وهذه معية خاصة، وتدل الآية الثالثة على شعور المؤمن بمعية الله ورقابته.

قوله: (وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: «حَدِيثُ جِبْرِيلَ» الْمَشْهُورُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِي ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ. قَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ

وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ».

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا. فَقَالَ: «يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ»»[1].



(١) أخرجه البخاري، رقم: (٥٠)، ومسلم، رقم: (٨).

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ، وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُون نَبِيًّا رَسُولًا. نُبِّئَ بـ﴿ٱقْرَأْ﴾، وَأُرْسِلَ بـ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، وهاجر إلى المدينة.

بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ١ ـ ٧]. **وَمَعْنَى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾: أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾: أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ. ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾: الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلَهَا).**

❁ الشَّرْح ❁

الأصل الثالث

هذا هو الأصل الثالث العظيم من الأصول التي يسأل عنها الإنسان في قبره: وهو معرفة نبينا ﷺ؛ فإن الملكين يسألان الميت في قبره: من هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فلا بد أن ينطوي قلب المؤمن على علم

بيّن عن شخص رسول الله ﷺ. ولا ريب أن لنبينا ﷺ منزلة عظيمة في قلوب المؤمنين، فإنه المفتاح الذي فتح الله تعالى به أعينًا عميًا، وقلوبًا غلفًا، وآذانًا صمًّا، امتن الله ببعثته على عباده فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فحري بنا أن نعرف طرفًا من سيرة نبينا ﷺ، فذكر الشيخ بعض الجمل العامة المعرفة بنبينا ﷺ.

نسب النبي ﷺ

قوله: (وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ): هذا اسمه ونسبه؛ فهو محمد، وقيل: أنه هو أول من سُمي بهذا الاسم، وأسماء نبينا ﷺ أعلام وأوصاف، كما أن أسماء الله الحسنى أعلام وأوصاف.

فهي أعلام لدلالتها على شخص ذلك النبي الكريم، فإذا قيل: محمد أو قيل: أحمد، أو قيل: الحاشر، أو قيل: العاقب، أو غير ذلك من الأسماء التي ثبتت في السُّنَّة؛ فهي دالة على ذات النبي، وهي أيضًا أوصاف؛ أي: كل اسم منها يدل على وصف مميز يختلف عن الأوصاف الأخرى؛ فهو ﷺ محل للحمد؛ فهو محمود من الله ومن الناس لما جُبل عليه من العبادة العظيمة، والأخلاق الكريمة، والخلال الحميدة؛ بل هو أحمدهم؛ ولذلك كان من أسمائه أحمد، وهو الحاشر، وهو العاقب كما سمَّى نفسه ﷺ، في حين أن أسماء الناس أعلام، ولا يلزم أن تكون أوصافًا، فربما سمي واحد من الناس صالحًا، وهو في الحقيقة طالح، وربما سمي أمينًا، وهو من أسرق الناس، وربما سمي شجاعًا، وهو من أجبن الناس، أما أسماء نبينا ﷺ، فهي أعلام وأوصاف.

قوله: (عَبْدِ اللهِ): أبوه توفي وهو حمل؛ فلم يدرك أباه؛ فولد يتيمًا ﷺ، وكذا أمه توفيت وهو صغير، ودفنت في الأبواء بين مكة والمدينة، فأبَوَا النبي ﷺ ماتا في الجاهلية، فعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: «**فِي النَّارِ**»، فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ، فَقَالَ: «**إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ**»[(١)]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ**»[(٢)]، وهذا يدل على عظم أمر الدين والعقيدة قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤]، فأعظم رابطة رابطة الإيمان، لا تقدم عليها رابطة نسب ولا عشيرة ولا أخوة ولا صداقة.

قوله: (عَبْدِ الْمُطَّلِبِ): أما عبد المطلب فجده، وهو أشرف العرب في زمانه، وهو الذي جدد حفر بئر زمزم؛ فكان سيد قريش.

قوله: (وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ): هاشم جده، وهو من قريش، ولا ريب أن نسب نبينا ﷺ محفوظ معروف منقول إلى عدنان، وأما ما بعد عدنان؛ فإنه لا يثبت، ويكفي للإنسان أن يعرف هذا القدر من نسب النبي ﷺ: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

قوله: (وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ): قريش هي القبيلة العربية المقدمة

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (٢٠٣).

(٢) أخرجه مسلم، رقم: (٩٧٦).

المفخمة التي مكنها الله تعالى من سدانة البيت، وقد كان البيت في يد قضاعة، فحاربهم قُصي بن كلاب، فظهر عليهم وتمكن من البيت وقسم الرفادة والسقاية ودار الندوة والحج واللواء بين أولاده؛ فكان من نصيب بني هاشم سقاية الحاج؛ فهذه القبيلة قبيلة عربية شريفة، وقد جاء الحديث عن وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»**(١)؛ فهو خيار من خيار من خيار، بُعث في نسب من قومه، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]، وفي قراءة: ﴿مِّنْ أَنْفَسِكُمْ﴾.

قوله: (وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ): وإسماعيل عليه السلام نبي من أنبياء الله، وهو ابن خليل الرحمٰن إبراهيم. وهذه من حكمة الله البالغة؛ فإن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم عليه السلام أن يسكن بعض ذريته بواد غير ذي زرع؛ فاحتمل هاجر سُرِّيته ومعها ابنها إسماعيل، ووضعهم في ذلك الوادي لأمر ادخره الله تعالى لهذه الأمة في آخر الزمان، وصار عليه الصلاة والسلام يتردد بين مكة والشام. وكان الأنبياء من فرع إسحاق؛ فظلت النبوة في بني إسرائيل قرونًا متطاولة، ولم يكن في العرب أنبياء بعد إسماعيل عليه السلام إلى أن بعث الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ؛ فآلت النبوة إلى فرع إسماعيل وختمت بنبينا ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (٢٢٧٦).

هذا هو نسب نبينا ﷺ، وهذه بيئته؛ فقد كان في مكة؛ أم القرى، ومحط أفئدة المؤمنين، ليس من العرب فقط؛ بل من العالمين، وهي مذكورة مشهورة في كتب أنبياء بني إسرائيل، ما من نبي إلا وحج البيت، ما من نبي من أنبياء الله إلا ويعلم أن لمكة مزية وفضلًا، وأنها محل البيت الحرام؛ لكن اليهود والنصارى أخفوا هذه الحقيقة.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِوَادِي الْأَزْرَقِ، فَقَالَ: **«أَيُّ وَادٍ هَذَا؟»** فَقَالُوا: هَذَا وَادِي الْأَزْرَقِ، قَالَ: **«كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عليه السلام هَابِطًا مِنَ الثَّنِيَّةِ، وَلَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللهِ بِالتَّلْبِيَةِ»**، ثُمَّ أَتَى عَلَى ثَنِيَّةِ هَرْشَى، فَقَالَ: **«أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَذِهِ؟»** قَالُوا: ثَنِيَّةُ هَرْشَى، قَالَ: **«كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عليه السلام عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ جَعْدَةٍ عَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ، خِطَامُ نَاقَتِهِ خُلْبَةٌ وَهُوَ يُلَبِّي»**[(١)]؛ وكان ﷺ في طريقه إلى الحج، وقد بلغ فج الروحاء؛ فقال: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ، حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا، أَوْ لَيُثْنِيَنَّهُمَا»**[(٢)]، وهذا يكون في آخر الزمان عندما ينزل عيسى بن مريم؛ فيحج بيت الله الحرام، وقد جاء في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«صَلَّى فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ سَبْعُونَ نَبِيًّا مِنْهُمْ مُوسَى»**[(٣)]؛ فبعث الله نبيه في أخريات الزمان من العرب، وقد كان اليهود استوطنوا المدينة بناءً على معرفتهم بصفة مهاجره: وأنها في

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (١٦٦).

(٢) أخرجه مسلم، رقم: (١٢٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) رواه مرفوعًا الطبرني في المعجم الكبير، رقم: (١٢٢٨٣)، وأبو الطاهر في المخلصيات، رقم: (١٢٨٦)، وصححه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة، رقم: (٣٠٩)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ١١٧): «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي الْأَوْسَط وَإِسْنَاده حسن»، وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب، رقم: (١١٢٧).

أرض ذات نخل وحِرار؛ يأملون أن يبعث النبي الخاتم منهم، وكانوا يستفتحون على العرب إذا وقع بينهم وبينهم خصومة، يقولون للأوس والخزرج لقد أظلنا زمان نبي نقاتلكم معه؛ فيفتح علينا، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩]، كل هذه الدلائل تدل على أن أهل الكتاب يعلمون أن لهذه البقعة ولمكة ـ شرَّفها الله ـ منزلة خاصة.

بعثة النبي ﷺ

قوله: (وَلَهُ مِنَ العُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُون نَبِيًّا رَسُولًا): هذا سن نبينا ﷺ؛ ثلاث وستون سنة؛ أربعون سنة قبل البعثة؛ فإن الله ﷻ لم ينزل عليه الوحي إلا بعد أن بلغ أشده؛ لأن الأربعين هي كمال الرجولة والقوة البدنية والعقلية؛ ولذا قال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ وقد كان نبينا ﷺ طوال هذه الأربعين سنة على أنبل الصفات، وأكرم الطباع، وكان مضرب المثل في قومه في الأمانة والصدق، حتى إنهم كانوا يلقبونه بالأمين، ولما تنازعوا عندما أعادوا بناء البيت من يضع الحجر في موضعه فَقَالُوا: «اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ حَكَمًا، قَالُوا: أَوَّلَ رَجُلٍ يَطْلُعُ مِنَ الْفَجِّ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالُوا: أَتَاكُمُ الْأَمِينُ، فَقَالُوا لَهُ، فَوَضَعَهُ فِي ثَوْبٍ، ثُمَّ دَعَا بُطُونَهُمْ فَأَخَذُوا بِنَوَاحِيهِ مَعَهُ، فَوَضَعَهُ هُوَ ﷺ»[1]؛ وكان الناس يضعون أماناتهم

---

(١) أخرجه أحمد بهذا اللفظ، رقم: (١٥٥٠٤)، من حديث مجاهد عن مولاه، =

عنده؛ لما يعلمون من صدقه وحفظه، ولم يُدْعَ إلى حلف في الجاهلية ـ فيه نصرة للمظلوم وفكاك للعاني ـ إلا أجاب، وكان ﷺ لصحة فطرته وسلامة قلبه يتأمل ويبحث عن الحق؛ حتى إنه يتحنث ـ أي: يتعبد ـ الليالي ذوات العدد في غار حراء قبل أن يأتيه الوحي؛ ويدرك أن ما عليه قومه باطل؛ ولهذا لم يسجد لصنم قط، ولم يشرب خمرًا قط في الجاهلية، إلى أن أذن الله تعالى بهذا الفتح العظيم؛ فلما أن بلغ الأربعين أتاه الوحي من الله ﷻ.

فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ ـ وَهُوَ التَّعَبُّدُ ـ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**»، قَالَ: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ١ ـ ٣]» فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها، فَقَالَ: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**»، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا

= وجزم محققو المسند أنه قيس بن السائب، وقيل: السائب بن أبي السائب، وقال محققو مسند أحمد، ط. الرسالة (٢٤/ ٢٦٢): «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير هلال بن خباب، فمن رجال أصحاب السنن، وهو ثقة».

الخَبَرَ: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**». فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ**»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ(١).

فتأمل حال هذه المرأة العاقلة حين قالت: والله لا يخزيك الله أبدًا؛ فاستدلت بهذه القرائن على أن الله تعالى لا يمكن أن يخذل من هذه صفته، وكانت واثقة مطمئنة، وأرادت أن تثبت ذلك بشهادة ورقة بن نوفل الذي كان عنده علم من الكتاب، فطمأنه وثبته. ومكث النبي ﷺ ثلاثة عشر سنة في مكة، يدعو إلى الله سرًّا في بداية الأمر، وهذا من الحكمة في الدعوة أنه بدأ بالدعوة السرية؛ لكي يستكثر من الأتباع، ثم بعد أن آمن جملة من السابقين إلى الإسلام على رأسهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، جهر بالدعوة بعد أن دخل فيها عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما؛ فخرج المسلمون صفَّين يطوفون بالبيت مُتَحَدِّين

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٣)، ومسلم، رقم: (١٦٠).

قريشًا؛ فكانت الفترة المكية ثلاث عشرة سنة، ثم أذن الله لنبيه ﷺ بالهجرة؛ فهاجر إلى المدينة، وبقي فيها عشر سنين: هذا مجمل عمر نبينا ﷺ.

قوله: (نُبِّئَ بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾): ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: ١ - ٥]؛ فكانت هذه الآيات إيذانًا بنبوته ﷺ.

قوله: (وَأُرْسِلَ بـ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾)؛ أي: بُعث إلى الناس لدعوتهم إلى الدخول في دين الله بآيات المدثر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾. والفرق بين النبي والرسول فيه أقوال أشهرها:

القول الأول: أن النبي: من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسول: من أوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه، وهذا فرق واضح.

ويأتي على هذا التفريق استدراك مهم وهو: كيف يوحى إلى النبي بشرع ولا يأمره بتبليغه؟.

القول الثاني: أن الرسول: هو من أوحي إليه بشرع جديد وأمر بتبليغه، والنبي: هو من أوحي إليه بشرع نبي قبله وأُمر بتجديده؛ أي: أن الرسول يوحى إليه بشريعة جديدة؛ كموسى، وعيسى، ومحمد عليهم صلوات الله وتسليمه، وأما النبي فهو يأتي تبعًا للرسول السابق، إذا اندرس العلم واحتاج الناس إلى الحكم بينهم في قضاياهم، فيبعث الله نبيًّا؛ لكي يجدد ما اندرس من رسالة الرسول الذي قبله، ويمثلون لذلك بأنبياء بني إسرائيل؛ كيوشع بن نون، ومن يسمونهم في كتبهم؛ أرميا، أشعيا، وحزقيال.

لكن يرد على هذا التفريق استدراك: وهو أن الله سمَّى يوسف عليه السلام رسولًا في كتابه مع أنه لم يوحَ إليه بشرع جديد؛ فإن مؤمن آل فرعون قد قال لقومه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: ٣٤]؛ قد كان يوسف عليه السلام رسولًا؛ مع أنه لم يوحَ إليه شرع جديد؛ بل كان يعمل بشريعة آبائه يعقوب وإسحاق وإبراهيم.

القول الثالث: أن الرسول: هو من بعث إلى قوم مخالفين لدعوتهم، سواء كان ذلك بشرع قديم أو بشرع جديد، وأن النبي: هو من بعث إلى قوم موافقين ـ أي: مؤمنين ـ لتعليمهم والقضاء بينهم، وهذا أسلم التعريفات وأرجحها، وهو الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه «النبوات»(١).

قوله: (وَبَلَدُهُ مَكَّةُ): وهي أم القرى، ولها من الفضائل ما لا يخفى: يكفي أنها تضم المسجد الحرام الذي صلاةٌ فيه بمائة ألف صلاة فيما عداه من المساجد.

وقد هاجر النبي ﷺ إلى المدينة بعد أن مكث بمكة ثلاثة عشر سنة يدعو الناس بكل ما وسعه من أنواع الدعوة؛ بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وقد لاقى النبي ﷺ وأصحابه في هذه الفترة المكية من العنت والمشقة الشيء العظيم، حتى إن النبي ﷺ إرفاقًا بأصحابه دعاهم إلى الخروج إلى الحبشة؛ لكي يأمنوا على أنفسهم وعلى دينهم؛ فخرج إلى الحبشة من خرج في هجرتين معروفتين، وبقي نبينا ﷺ

---

(١) ينظر: النبوات، لابن تيمية (٢/٧١٧) وما بعدها.

يدعو أهل مكة ويصبر منهم على الأذى حتى كان يلقى منهم الأذى العظيم، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»(١)، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]؛ فكان ما تمنى النبي ﷺ، وكان لا يدخر وسعًا في عرض دعوته؛ فكان يخرج إلى الموسم كل سنة ويعرض نفسه على القبائل.

فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ، فَقَالَ: «**أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي**»(٢)، وكان عمه أبو لهب يتبعه ويقول: هذا

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٣٢٣١)، ومسلم، رقم: (١٧٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود، رقم: (٤٧٣٤)، والترمذي، رقم: (٢٩٢٥)، وابن ماجه، رقم: (٢٠١)، وقال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ». وصححه محققو مسند أحمد، ط. الرسالة (٢٣/ ٣٧٠)، رقم: (١٥١٩٢)، وصححه بنحوه ابن حبان في صحيحه، رقم: (٧٠١٢)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم: (١٩٤٧).

مجنون قريش؛ ينفرهم ويحذرهم منه، حتى لقي النبي ﷺ نفرًا من الأوس والخزرج فعرض عليهم دعوته؛ فقبلوا ورغبوا ورحبوا وواعدوه الموسم القادم، فلما كانت السنة التي تليها جاؤوا وعددهم سبعون؛ فواعدوا النبي ﷺ في العقبة، وبايعوه بيعة العقبة، فعن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ عَلَى يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ، ثُمَّ تَتَابَعَ الْقَوْمُ، فَلَمَّا بَايَعَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَرَخَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأْسِ الْعَقَبَةِ بِأَبْعَدِ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ قَطُّ: يَا أَهْلَ الْجُبَاجِبِ ـ وَالْجُبَاجِبُ: الْمَنَازِلُ ـ هَلْ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ وَالصُّبَاةُ مَعَهُ؟ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ ـ قَالَ عَلِيٌّ؛ يَعْنِي: ابْنَ إِسْحَاقَ؟! مَا يَقُولُهُ عَدُوُّ اللهِ: مُحَمَّدٌ ـ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا أَزَبُّ الْعَقَبَةِ هَذَا ابْنُ أَزْيَبَ، اسْمَعْ؛ أَيْ: عَدُوَّ اللهِ أَمَا وَاللهِ، لَأَفْرُغَنَّ لَكَ**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ارْفَعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ**» قَالَ: فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَى أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَمْ أُؤْمَرْ بِذَلِكَ...**» الحديث[١].

ثم انفضوا، وصار الصحابة من الأوس والخزرج من الأنصار يتحدثون ويقولون: هذا رسول الله ﷺ في جبال مكة خائفًا شريدًا، وعرضوا عليه أن ينتقل وأن يهاجر إليهم؛ فكان ينتظر الإذن من الله تعالى حتى أذن الله تعالى له بالهجرة كما سيأتي.

قوله: (بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ): النذارة: هي الإعلان المصحوب بالتخويف، ولا شك أن الرسل مبشرون ومنذرون؛ فالله تعالى بعث نبيه بالنذارة من الشرك؛ فعَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ**

---

(١) أخرجه أحمد، رقم: (١٥٧٩٨)، وقال محققو مسند أحمد، ط. الرسالة: «حديث قوي، وهذا إسناد حسن».

مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ؛ فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ»(١)، والنذير العريان عند العرب في الجاهلية: هو الذي يأتي محذرًا للقوم حتى يشق ثيابه ويتعرى؛ ليشعرهم بالجد، وقال ﷺ: **«أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟»** قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: **«فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»**(٢)، هذا امتثال لأمر الله ﷻ في قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ فقام على الصفا وأنذر عشيرته، وعم وخص: يا معشر قريش، يا عباس بن عبد المطلب، يا صفية عمة رسول الله، يا فاطمة بنت رسول الله؛ فعمَّ وخص؛ كما سبق بيانه.

قوله: (وَبالدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ): الدعوة إلى التوحيد بشارة في مقابل النذارة؛ لأن الدعوة إلى التوحيد يحصل بها البشرى والأنس واجتماع القلب والهم على عبادة الله الواحد القهار.

قوله: (وَالْدَّلِيلُ قَوْلُه تُعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾**)**: يعني: المتدثر بهذه الأغطية التي أردت أن تسكن بها،

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٦٤٨٢)، ومسلم، رقم: (٢٢٨٣).

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٤٧٧٠)، ومسلم، رقم: (٢٠٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا.

﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾: وهذا أمر له بالقيام حسًا ومعنى: القيام من رقدته وضجعته، والقيام بأمر الدعوة أيضًا، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ : فسر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه المفردات.

قوله: (وَمَعْنَى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو)؛ لأن هاتين قضيتان متلازمتان، لا يمكن أن يتحقق التوحيد إلا بالبراءة من الشرك، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، لا بد منهما معًا.

قوله: (﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾: أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ): أعظم ما عظم الله تعالى به التوحيد؛ ولذلك كان أفضل الكلام لا إله إلا الله، «... **وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»(١).

قوله: (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾؛ أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ): فسر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الثياب هاهنا بالأعمال، وهذا أحد التفسيرين؛ أي: طهر أعمالك من الشرك، وإنما سمى الأعمال ثيابًا؛ لملابستها للإنسان، واستدل العلماء أيضًا بهذه الآية على اشتراط طهارة الثوب من النجس في باب الطهارة في الفقه، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين: يعني: على الطهارة المعنوية من الشرك، وعلى الطهارة الحسية من النجاسات، ولا شك أن المعنى بالطهارة المعنوية أقرب للسياق والمقام

---

(١) أخرجه الترمذي، رقم: (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم: (٢٥٩٨)، وقال العلامة ابن باز في فتاوى نور على الدرب (١٧/٣٩٩): «في إسناده ضعف، ومعناه صحيح».

لكن لا يمنع أن يحتمل المعنى الآخر(١).

قوله: (﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾: الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ): ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ [الحج: ٣٠]؛ فالرجز: هي الأصنام.

قوله: (وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا): فهجرها يكون بتركها والتخلي عنها والبراءة منها، وكذلك أيضًا هجر أهلها: وهم المشركون، والبراءة منهم، والتخلي عنهم؛ فإن هذا من أصول الإيمان، كما قال الله ﷻ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، هكذا الإيمان فيصل بين الحق والباطل، بين الشرك والتوحيد.



---

(١) تفسير الطبري (٢٣/٩ ـ ١٢)، وزاد المسير (٤/٣٥٩)، وتفسير السعدي (ص٨٩٥).

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَالْهِجْرَةُ: الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ.

وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٥٦]، قَالَ الْبَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ. وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ ﷺ: «لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

❁ الشَّرْح ❁

قوله: (أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ).

هجرة النبي ﷺ

يعني: أن النبي ﷺ أمضى عشر سنوات من العهد المكي وهو يدعو إلى التوحيد، وقد اشتدت عليه الأزمة والمحنة في آخر هذه العشر؛ فقد توفيت زوجه خديجة التي كانت تسرِّي عنه وتسلِّيه عما يلقى من أذى قريش، وتوفي عمه أبو طالب الذي كان يحوطه ويدفع عنه ـ رغم أنه كان مشركًا ـ.

ثم وقع للنبي ﷺ آية عظيمة من آيات نبوته: وهي العروج إلى السماء، عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رضي الله عنهما أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِهِ: **«بَيْنَا أَنَا عِنْدَ البَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ، وَاليَقْظَانِ ـ وَذَكَرَ: يَعْنِي: رَجُلًا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ ـ، فَأُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ، مُلِئَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَشُقَّ مِنَ النَّحْرِ إِلَى مَرَاقِّ البَطْنِ، ثُمَّ غُسِلَ البَطْنُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ مُلِئَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، وَأُتِيتُ بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ، دُونَ البَغْلِ وَفَوْقَ الحِمَارِ: البُرَاقُ، فَانْطَلَقْتُ مَعَ جِبْرِيلَ حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَأَتَيْتُ عَلَى آدَمَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنَ ابْنٍ وَنَبِيٍّ، فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ، قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَأَتَيْتُ عَلَى عِيسَى وَيَحْيَى، فَقَالَا: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ، فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّالِثَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَأَتَيْتُ عَلَى يُوسُفَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ، فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ:**

مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قِيلَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَأَتَيْتُ عَلَى إِدْرِيسَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ، فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الخَامِسَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَأَتَيْنَا عَلَى هَارُونَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ، فَأَتَيْنَا عَلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَأَتَيْتُ عَلَى مُوسَى، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ، فَلَمَّا جَاوَزْتُ بَكَى، فَقِيلَ: مَا أَبْكَاكَ: قَالَ: يَا رَبِّ هَذَا الغُلَامُ الَّذِي بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَفْضَلُ مِمَّا يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي، فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ السَّابِعَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قِيلَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، قال: نعم، قيل: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَأَتَيْتُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنَ ابْنٍ وَنَبِيٍّ، فَرُفِعَ لِي البَيْتُ المَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا البَيْتُ المَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ، وَرُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ المُنْتَهَى، فَإِذَا نَبِقُهَا كَأَنَّهُ قِلَالُ هَجَرَ، وَوَرَقُهَا كَأَنَّهُ آذَانُ الفُيُولِ، فِي أَصْلِهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: أَمَّا البَاطِنَانِ: فَفِي الجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: النِّيلُ وَالفُرَاتُ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلَاةً، فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جِئْتُ مُوسَى، فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلَاةً، قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِالنَّاسِ مِنْكَ، عَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، وَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَسَلْهُ، فَرَجَعْتُ، فَسَأَلْتُهُ، فَجَعَلَهَا أَرْبَعِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ، ثُمَّ ثَلَاثِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَلَ

عِشْرِينَ، ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَلَ عَشْرًا، فَأَتَيْتُ مُوسَى، فَقَالَ: مِثْلَهُ، فَجَعَلَهَا خَمْسًا، فَأَتَيْتُ مُوسَى فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: جَعَلَهَا خَمْسًا، فَقَالَ: مِثْلَهُ، قُلْتُ: سَلَّمْتُ بِخَيْرٍ، فَنُودِيَ: إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي، وَأَجْزِي الحَسَنَةَ عَشْرًا»[١]، ونزل النبي ﷺ بهذه الصلوات الخمس.

قوله: (وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَواتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ): هذه الصلوات الخمس لم تفرض إلا في آخر ثلاث سنوات في مكة. وعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَتْ: «فَرَضَ اللهُ الصَّلَاةَ حِينَ فَرَضَهَا، رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ، فِي الحَضَرِ وَالسَّفَرِ، فَأُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ، وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الحَضَرِ»[٢]، والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أنه أيضًا لم تكن فرضت الجماعة، وإنما فرضت الجماعة والصلاة الرباعية بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة؛ لأن الأذان الذي هو نداء للجماعة لم يشرع إلا بعد الهجرة.

قوله: (وَبَعْدَهَا أُمِرَ بالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَالْهِجْرَةُ: الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ.)؛ أي: بعد هذه السنوات الثلاث عشرة، أُمر بالهجرة إلى المدينة، والنبي ﷺ لا يخرج عن أمر ربه، لا يمكن أن يهاجر إلا بإذنه؛ فأذن الله تعالى له بالهجرة، وكان قد شرع في إرسال أصحابه إلى المدينة، وصاروا يصلون إلى المدينة أرسالًا يخرجون خفية إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فإنه قام في قريش وقال: من أراد أن تثكله أمه فليلقني في بطن هذا الوادي؛ فلم يلحقه أحد، أما نبينا ﷺ فقد شعر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بنية رسول الله ﷺ في الهجرة؛ فأعد راحلتين

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٣٢٠٧)، ومسلم، رقم: (١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٣٥٠)، ومسلم، رقم: (٦٨٥).

وأعلَفهما وأعدهما لهذه المناسبة؛ فعَنْ عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ: لَقَلَّ يَوْمٌ كَانَ يَأْتِي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، إِلَّا يَأْتِي فِيهِ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيِ النَّهَارِ، فَلَمَّا أُذِنَ لَهُ فِي الخُرُوجِ إِلَى المَدِينَةِ، لَمْ يَرُعْنَا إِلَّا وَقَدْ أَتَانَا ظُهْرًا، فَخُبِّرَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: مَا جَاءَنَا النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا لِأَمْرٍ حَدَثَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: «**أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ؛ يَعْنِي: عَائِشَةَ وَأَسْمَاءَ، قَالَ: «**أَشَعَرْتَ أَنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ**». قَالَ: الصُّحْبَةَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**الصُّحْبَةَ**»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ عِنْدِي نَاقَتَيْنِ أَعْدَدْتُهُمَا لِلْخُرُوجِ، فَخُذْ إِحْدَاهُمَا، قَالَ: «**قَدْ أَخَذْتُهَا بِالثَّمَنِ**»[(١)].

قَالَتْ: «فَوَاللهِ مَا شَعُرْتُ قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ أَحَدًا يَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمئِذٍ»[(٢)] كيف لا يبكي؟! وهو سيصحب محمد بن عبد الله ﷺ، ويكون له هذا الفخر العظيم إلى يوم القيامة.

وفي قوله: «**قَدْ أَخَذْتُهَا بِالثَّمَنِ**» دليل أنه في أمور الطاعات والقرب ينبغي أن يبذل الإنسان من ماله، وألا يعتمد على أعطيات الآخرين قدر المستطاع، وكذا صنع النبي ﷺ في بناء المسجد بعد أن هاجر.

والمهم أنهما ركبا هاتين الناقتين وخرجا من الباب الخلفي؛ لأن أعين قريش كانت ترصدهما، وقد شعرت قريش فعلًا أن النبي ﷺ على وشك الخروج، وأعدت للأمر عدة؛ فاجتمعوا في دار الندوة، وتشاوروا فيما بينهم حتى استقر رأيهم على أن ينتدبوا من كل قبيلة من قبائل قريش

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٢١٣٨).

(٢) سيرة ابن هشام، ت: السقا (١/ ٤٨٥).

فتى جلدًا شابًّا معه سيف ويحيط ببيت رسول الله ﷺ، فإذا همَّ بالخروج ضربوه ضربة رجل واحد فتفرق دمه في القبائل، لكن الله تعالى أنجاه قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: ٩]، وخرج النبي ﷺ من بين ظهرانيهم، وأوى وصاحبه إلى غار يقال له: «غار ثور»، وباتا فيه ثلاثة أيام حتى ينقطع الطلب، وجعلت قريش لمن يأتي بالنبي ﷺ وصاحبه مائة من الإبل - وهو عرض مغرٍ -، يتمناه كل عربي؛ إذ الإبل هي أنفس أموال العرب، ولكن الله سلَّم؛ فظل رسول الله ﷺ من حين خروجه إلى أن بلغ المدينة عشرة أيام حتى بلغ المدينة يوم اثنين، وكان في هجرته ﷺ يكمن نهارًا ويسير ليلًا، وبذل أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ضروب الفداء والرعاية بنبينا ﷺ، ما بلغه هذه الدرجة؛ أن كان أفضل هذه الأمة بعد نبيها، ومما جرى له أنهما دخلا غارًا في أثناء مسيرهما فقال أبو بكر للنبي ﷺ: امكث يا رسول الله حتى أستحث لك الغار حتى لا يكون فيه سبع أو حية أو غير ذلك؛ فدخل رضي الله عنه حتى إذا استوثق دعا النبي ﷺ أن يدخل، وجعل النبي ﷺ رأسه الشريفة على فخذ أبي بكر، وجعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه يتلمس الغار؛ فوجد فيه حجرين؛ فخشي أن يخرج منهما شيء يؤذي رسول الله ﷺ؛ فألقمهما عقبيه، فخرجت عقرب من أحد هذين الجحرين وجعلت تلسع عقب أبي بكر الصديق وهو يتألم ولا يبدي حراكًا حتى جعلت دموعه تنهمر من عينيه؛ فلم يُرع النبي ﷺ إلا ودموعه تسقط على وجهه الشريف؛ فقام النبي ﷺ؛ فقال: «**ما لك؟**»؛ فقال: عقرب يا رسول الله، كرهت أن أوقظك؛ فمسح النبي ﷺ على عقبه حتى برئ؛ فكانت له هذه المنقبة العظيمة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ

تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠]؛ فحصلت الهجرة التي ذكر[١]؛ ولهذا لما تحدث أناس في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وربما فضله بعضهم على أبي بكر ـ قال: والله ما يساوي آل الخطاب ليلة من ليالي أبي بكر، رضي اللَّهُمَّ عنهم أجمعين.

فنبينا ﷺ هاجر من مكة إلى المدينة لما أذن الله تعالى له بالهجرة، فوصل المدينة يوم اثنين، وَسَمِعَ المُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الحَرَّةِ، فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ، فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ، أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِهِمْ، لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ، فَلَمْ يَمْلِكِ اليَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ العَرَبِ، هَذَا جَدُّكُمُ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ، فَثَارَ المُسْلِمُونَ إِلَى السِّلَاحِ، فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ بِظَهْرِ الحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَذَلِكَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ، وَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَامِتًا، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الأَنْصَارِ ـ مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ـ يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ، حَتَّى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ[٢].

وهذه شهادة أنطق الله تعالى بها ذلك اليهودي فقد قال: هَذَا جَدُّكُمُ؛ يعني: حظكم وعزكم وشرفكم ـ الذي تنتظرون.

---

(١) البداية والنهاية (٣/١٧٨ ـ ١٨٠)، باختصار وتصرف.

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٣٩٠٦) عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام رضي الله عنه.

ثم إن نبينا ﷺ سار مع الناس حتى أتى قباء ونزل فيها ما شاء الله، ثم بعد ذلك توجه إلى المدينة وصار بطون الأنصار يتلقونه، كل يأخذ بناقته يريد أن ينزل عنده ويرحبون به ويقولون: «هاهنا المنعة» ويرغبونه في النزول عندهم، وكان ﷺ يقول: **«دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ»**(١)، حتى أتت ناقته إلى موضع مسجده فبركت فلم ينزل عنها ﷺ، ثم قامت فمشت إلى موضع ثم رجعت إلى موضعها الأول فبركت وتحلحلت وألقت بجرَّانها، فنزل النبي ﷺ وقال: **«هذا المنزل إن شاء الله»**، فقد أمرت الناقة بتحديد موضع مسجده ﷺ، وَكَانَ مِرْبَدًا لِلتَّمْرِ، لِسُهَيْلٍ وَسَهْلٍ، غُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي حِجْرِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ: **«هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ المَنْزِلُ»**. ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الغُلَامَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا بِالْمِرْبَدِ، لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا، فَقَالَا: لَا؛ بل نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَبَى رَسُولُ اللهِ أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُمَا هِبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا، ثُمَّ بَنَاهُ مَسْجِدًا، وَطَفِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِهِ وَيَقُولُ، وَهُوَ يَنْقُلُ اللَّبِنَ: **«هَذَا الحِمَالُ لَا حِمَالَ خَيْبَرْ، هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّ الأَجْرَ أَجْرُ الآخِرَهْ، فَارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَالمُهَاجِرَهْ»**(٢).

وبقي إبَّان ذلك في بيت أبي أيوب الأنصاري في تفاصيل معلومة من السيرة(٣).

والهجرة مفرق طريق في تاريخ الإسلام ولهذا عظمها الصحابة رضوان الله عليهم، فلما أراد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، رقم: (٣٥٤٤).

(٢) جزء من الحديث الذي تقدم تخريجه قريبًا عن عروة بن الزبير عن أبيه الزبير بن العوام رضي الله عنه.

(٣) البداية والنهاية (٣/ ١٨٦)، ط. مكتبة المعارف بيروت.

يجعل تأريخًا للمسلمين جمع الصحابة وشاورهم ثم استقر رأيهم على أن يؤرخوا بالهجرة؛ لأن هجرة النبي ﷺ هي الإيذان بقيام الدولة المسلمة بجميع عناصرها وأركانها، فلم يكن التقويم مبنيًّا لا على البعثة ولا على المولد النبوي وإنما كان مبنيًّا على هجرة النبي ﷺ إلى المدينة؛ لعظم ذاك الحدث، وكان مقدم النبي ﷺ، يومًا مشهودًا فرح به المسلمون غاية الفرح.

قوله: (وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ): الهجر الترك، والهجرة بالمعنى الخاص هي: الانتقال من مكة إلى المدينة، وهي التي يعلق عليها الفضل العظيم، وهذا النوع من الهجرة انقطع بفتح مكة، وصارت دار إسلام وانقطعت هذه المنقبة، فمن هاجر من مكة إلى المدينة قبل فتح مكة، فهو من المهاجرين؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ ـ فَتْحِ مَكَّةَ ـ: **«لَا هِجْرَةَ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ»**(١).

ومنزلة المهاجرين منزلة عليَّة رفيعة، وهي منقبة عظيمة لأهلها، ألا ترون أن الله تعالى إذا ذكر المهاجرين والأنصار؛ قدَّم المهاجرين، قال الله تعالى في سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]، ثم ثنى فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩]؛ يعني: الأنصار، ثم ثلَّث فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ١٠] يريد التابعين، وقال في موضع آخر: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وكلا الفريقين على منزلة عظيمة لكن المهاجرين على وجه العموم أفضل من الأنصار، أما الهجرة العامة فلم تنقطع فهي فريضة باقية

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٢٧٨٣)، ومسلم، رقم: (١٣٥٣).

فحيث ما وجد بلد شرك وبلد إسلام؛ صار لزامًا على من يعيش في بلد الشرك أن ينتقل إلى بلد الإسلام؛ لتحقيق المقاصد التي ذكرنا من تكثير سواد المسلمين وتقويتهم، والنأي بدينه عن الفتن.

والهجرة صارت فريضة على كل مؤمن دخل في دين الإسلام وكان قادرًا على أن يهاجر إلى رسول الله ﷺ؛ لما في ذلك من تقوية المؤمنين وتكثير سوادهم ونصرهم وموالاتهم؛ وينهى عن الرجوع إلى بلده أو باديته، وكان ينهى عن تعرُّب المهاجر: وهو أن يعود إلى باديته بعد أن أسلم، فصار الناس يتقاطرون إلى مدينة رسول الله ﷺ، وصار الأنصار رضوان الله عليهم يتلقون هؤلاء المهاجرين ويرحبون بهم ويقاسمونهم أموالهم وضياعهم كما جرى في وقائع مشهورة، فكان بالمدينة: الأنصار وهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبل، وهم مسلمة الأوس والخزرج، والمهاجرون الذين قدموا من مكة ومن بقية قبائل العرب، ثم ما زال أمر الإسلام يقوى ويشتد إلى أن بلغ ما بلغ ولله الحمد.

قوله: (مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ): هذه الهجرة بالمعنى العام؛ كما عرفها المصنف: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وهي بهذا التعريف باقية إلى يوم القيامة لا يمكن أن تنقطع، ما دام ثَمَّ بلد شرك وبلد إسلام، فإن هذه الشريعة باقية لا تنقطع. وبلد الإسلام: هو الذي تكون فيه أعلام الإسلام وشرائعه في الأعم الأغلب ظاهرة، وأما بلد الشرك: فهو الذي لا تظهر فيه شعائر الإسلام في الأعم الأغلب، وشعائر الإسلام: هي الأذان، وصلاة الجماعة، والجُمع، والأعياد... إلى غير ذلك من المظاهر الإسلامية، وهذا التعريف هو أوسع تعريف يمكن أن نطبقه في هذا العصر، وقد كان يطلق الجامع لأهل الإسلام الذي ينضوي الناس تحت إمام واحد، ويقاتلون تحت راية واحدة.

وغير المسلمين أربعة أصناف: حربيون، ومعاهدون، وذميون، ومستأمِنون.

والمقصود بالذميين: اليهود والنصارى، الذين رضوا أن يبذلوا الجزية للمسلمين ويساكنوهم، ويبقوا على دينهم، قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩]، ـ هم أهل الذمة ـ في ذمة أهل الإسلام؛ بمعنى: أنهم يحفظون حقوقهم ودماءهم وأموالهم وأعراضهم ولا يحل انتهاك شيء منها، ولكنهم خاضعون للسلطة الإسلامية، ويبذلون جزية سنوية، ولا وجود في العصور الأخيرة لهذا الأمر، فمنذ انتهاء الدولة العثمانية ذهب واضمحل.

والمستأمنون: هم الذين يدخلون بلاد الإسلام بأمان، كما دل عليه قول الله ﷻ: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة: ٦]، فلا يحل لأحد أن يتعرض له حتى يُرد إلى مأمنه، ولكنه يُدعى كما قال الله: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، ويرد إلى مأمنه ولا يُقسر على الدخول في الإسلام.

والمعاهدون هم: مَن بينهم وبين أهل الإسلام عهد وميثاق، وهذه الصيغة هي الصيغة الغالبة الآن في علاقات الدول الإسلامية مع غير الدول الإسلامية، فحينما يقع اعتراف متبادل بين دولتين أو أكثر، فهو يعني: نوع معاهدة، بحيث إذا انتقل أحد من أهل تلك البلاد إلى البلاد الإسلامية أو العكس، فإنه يدخل بالعهد، ويكون معاهدًا، ويسمونها الآن (بالفيزا)، فإذا حصل على (الفيزا) فمعنى ذلك أنه حصل على عهد؛ فلا

يحل التعرض له ولا يجوز خفر ذمة أهل الإسلام بقتله أو إيذائه أو ظلمه؛ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**»[1].

والحربيون: هم من وقع بينهم وبين أهل الإسلام الذين تضمهم دولة واحدة وسلطان واحد حرب وقتال، فكل فريق يحاول أن ينال من الفريق الآخر؛ فلا عهد للحربي ولا ذمة له بل هو حلال الدم والمال.

قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾).

هذا دليل على وجوب الهجرة، وعلى أن من ترك الهجرة مع القدرة عليها، فقد أتى كبيرة يستحق بها النار، إلا من استثنى الله تعالى.

قوله: (قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾).

واستدل المصنف رحمه الله على وجوب الهجرة بهذه الآية، فقولهم: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ يعني: فُتِنَّا عن ديننا واستُضعفنا، فتجيبهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾؛ أي: أنه كان يسعكم أن تنتقلوا وتهاجروا، قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾: ثم استثنى الله تعالى غير القادر فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٣١٦٦).

﴿وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾، وهذا من سعة دين الله وسماحة الشريعة أن المكره لا شيء عليه، وقد كان أقوام في مكة يرسفون في الأغلال والقيود يحال بينهم وبين الهجرة، كما جرى ذلك لأبي جندل ولأبي بصير وغيرهما من الصحابة فهؤلاء معفو عنهم.

وهذا أيضًا ينقلنا إلى النظر في حال من كان مقيمًا في بلدان أخرى من بلاد الكفر هل يلزمه أن ينتقل إلى بلاد الإسلام؟

فنقول: إذا كان يمكنه أن ينتقل إلى بلد الإسلام؛ فإنه يجب عليه لزامًا أن ينتقل، أما إذا كان لا يمكنه؛ فهو معذور، ويمكن أن نتصور هذا في العقود الأخيرة بحال المسلمين في بعض البلاد الغربية أو الشرقية، فمن تمكن من النقلة إلى بلاد الإسلام والعيش بين ظهراني المسلمين، كان ذلك لزامًا عليه؛ لأن عيشه بين الكفار يثلم دينه، وقد جاء في الحديث: «**أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ**»[(١)]، فإن كانت الأنظمة تمنع ذلك والدول المسلمة لا تسمح بالإقامة؛ فهو معذور، وقد ارتفع عنه الحرج؛ لقول الله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

هل يجوز للمسلم أن يدع بلاد الإسلام، ويقصد بلاد الكفر ليقيم فيها إقامة مؤقتة أو دائمة؟ فنقول: أما الإقامة الدائمة فلا، وأما الإقامة

---

(١) أخرجه أبو داود، رقم: (٢٦٤٥)، والترمذي، رقم: (١٦٠٤)،عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ مرفوعًا، وأخرجه النسائي، رقم: (٤٧٨٠)، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ مرفوعًا بدون ذكر جرير، قال ابن حجر كما في التلخيص الحبير: «وصحح البخاري وأبو حاتم وأبو داود والترمذي والدارقطني إرساله إلى قيس بن أبي حازم»، (٤/ ٢١٨)، وصححه الألباني مرفوعًا بشواهده في الإرواء، رقم: (١٢٠٧)، والأرناؤوط في تحقيق سنن أبي داود (٤/ ٢٨١).

المؤقتة فهي أهون، ولكنها لا تجوز إلا بشروط ثلاثة ذكرها شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

الشرط الأول: أن يكون عنده علم يدفع به الشبهات؛ لأن القاصد إلى بلاد الكفار يطرأ على عقله من الشبهات، ويرد عليه من الأفكار المضلة ما قد يزلزل دينه وعقيدته، لا سيما إذا كانت بلادًا متطورة متقدمة من الناحية التكنولوجية والمدنية؛ فقد يقع في قلبه زيغ ـ والعياذ بالله ـ فلا بد أن يكون عنده علم ثابت يدفع به الشبهات.

الشرط الثاني: أن يكون عنده ورع يدفع عنه الشهوات؛ لأن بلاد الكفار على مر الأعصار بلاد فجور وتحلل وتساهل، بخلاف بلاد أهل الإسلام ففيها من رعاية الأخلاق والمحافظة على الآداب ما ليس في غيرها.

الشرط الثالث: أن يكون لديه حاجة: كطلب علم أو طلب تجارة؛ فإن الفقهاء نصُّوا على أن طلب التجارة مما يبيح السفر إلى بلاد الكفار، وأن ذلك من الضرب المباح في الأرض، أو بغرض الدعوة إلى الله ﷻ؛ فهذا مقصد صحيح، أو لطلب علاج لا يجد مثله في بلاده؛ فهذه حاجات صحيحة.

والسياحة لا تعد من الحاجة؛ لأن السياحة بالمفهوم المعاصر: تستلزم غالبًا غشيان الأماكن والمواضع التي تكثر فيها المنكرات والفساد، وفي المتنزَّهات التي يقصدها الناس على اختلاف أحوالهم ورداءة طباعهم وعاداتهم؛ فيقع البصر على مناظر مؤذية وعورات مغلظة وغير ذلك؛ ولذلك فإن السياحة ليست من الحاجة التي تبيح أن يحمل الإنسان نفسه وحريمه ويذهب إلى بلاد الكفر والعهر.

---

(١) ينظر: شرح رياض الصالحين، للعلامة محمد بن صالح العثيمين (١/ ٢٢ وما بعدها).

فلا بد من تحقق هذه الشروط الثلاثة لجواز السفر إلى بلاد الكفر، وذلك أن أعظم ما ينبغي للإنسان أن يحفظه: دينه؛ لأنه أعظم المقاصد، والأمور نسبية فالنبي ﷺ أذِن لأصحابه أن يهاجروا من مكة إلى الحبشة مع أن الحبشة في ذلك الوقت ليست دار إسلام؛ لكنهم كانوا في مكة يتعرضون للفتنة في الدين وللأذى البدني والمعنوي حتى كان الحجر يوضع على صدر بلال وينوء به ويقول: أحد أحد، وكان يؤتى بأسياخ الحديد فتوضع على ظهر خباب بن الأرت؛ فلا يطفئها إلا ماء ظهره، وكان عمار بن ياسر يغمس رأسه في الماء(١)، «فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا يُصِيبُ أَصْحَابَهُ مِنْ الْبَلَاءِ، وَمَا هُوَ فِيهِ مِنْ الْعَافِيَةِ، بِمَكَانِهِ مِنْ اللهِ وَمِنْ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَمْنَعَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ الْبَلَاءِ، قَالَ لَهُمْ: **«لَوْ خَرَجْتُمْ إلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا»**»(٢)، فهذا أخف الشرين، فلما بوأ الله تعالى للمؤمنين المدينة فلا يحكم بها إلا بدين الله والآمر الناهي فيها رسول الله ﷺ؛ كان لزامًا على كل مؤمن أن يهاجر إلى المدينة، رجعوا من الحبشة. أما من قصد بلاد الكفر لأجل السكنى والرفاهية والتوسع في أمور الدنيا والتنعم؛ فهذا قد خاطر بدينه ونفسه وعياله وأقامهم في موضع ينسلخون من دينهم؛ فهذا لا يحل، وقد رأيت بعيني رأسي من المسلمين الذين ابتلوا بالسكنى بين ظهراني الكفار في أوروبا وأمريكا من يبكي بكاءً مرًّا وهو يرى ذريته ينسلخون من الدين أمام عينه، ولا يملك عليهم قوامة ولا ولاية؛ لأن الأنظمة المدنية لتلك الدول تمنعه من أن يقوم عليهم أو يأمرهم أو ينهاهم، فما أن تبلغ الفتاة

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٨٥)، ط. مكتبة المعارف بيروت.

(٢) سيرة ابن هشام، ت: السقا (١/ ٣٢١).

ثماني عشرة سنة، فلها أن تصاحب من تشاء، ولها أن تبيت مع من تشاء، ولها أن تتخذ صديقًا... إلى غير ذلك من الموبقات، يرى ذلك بأم عينيه ولا يحرك ساكنًا، فلا شك أن تعريض الإنسان ذريته لهذه المخاطر لأجل لعاعة من الدنيا مجازفة عظيمة وتعريض للنفس لكبائر هو في عافية منها، فبلاد الإسلام مهما بلغت من التخلف خير له؛ فإن الإنسان في بلاد الإسلام يقرع سمعه الآذان، ويسمع القرآن، ويجد أهل الإسلام؛ فالمقام فيها ليس كالمقام بين ظهراني الكافرين.

قوله: **(وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ قَالَ الْبَغَوِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: **سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ)**: استدل المصنف أيضًا بهذه الآية على الهجرة. فالله تعالى ناداهم باسم الإيمان، قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾، هذا يُفهم بأن من شرط الإيمان أن يهاجر الإنسان من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وأن هذا مقتضى العبودية ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾.

والبغوي إمام مفسر مشهور، وتفسيره جرى ـ ولله الحمد ـ على التفسير بالمأثور، فهو من تفاسير أهل السُّنَّة، ولعل الشيخ نقل كلام البغوي بمعناه لا بحروفه؛ فإن الذي في التفسير غير مطابق لهذا اللفظ، فكأن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ نقله بمعناه.

قوله: **(وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ** ﷺ: **«لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»)**[1]:

---

(١) أخرجه أبو داود، رقم: (٢٤٧٩)، من حديث معاوية رضي الله عنه، وصححه الألباني في الإرواء (١٢٠٨). وقال محققو مسند أحمد، ط. الرسالة: «حسن لغيره» (١١١/٢٨).

الحديث يدل على أن أمر الهجرة باق إلى أن تطلع الشمس من مغربها، وعلق التوبة بطلوع الشمس من مغربها؛ لأنه بعد طلوع الشمس من مغربها يوصد باب التوبة؛ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فإذا طلعت الشمس من مغربها فلا توبة، وإذا غرغرت الروح في الحلقوم فلا توبة.



❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، مِثْلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَ ـ صَلاة اللَّهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ ـ وَدِينُهُ بَاقٍ).

قوله: (فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ): لما استقر نبينا ﷺ بالمدينة، وأوى إليه أصحابه؛ صارت شرائع الإسلام تترى وتتوالى؛ لأن البيئة صارت مناسبة لإقامة بقية أركان الدين.

قوله: (مِثْلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ): فشُرعت الزكاة، وشُرع الصوم، وقد تقدم معنا أن الصلاة قد شُرعت قبل الهجرة بثلاث سنين، وقد كانت مشروعية الزكاة والصوم في السنة الثانية من الهجرة، ولكن الزكاة كأمر عام قد نزلت فيها آيات في مكة: كقول الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون: ٤]، لكن تفاصيلها بأنصبتها وشروطها وغير ذلك إنما حصلت في المدينة؛ فلذلك كان النبي ﷺ يبعث السُّعاة؛ ليقبضوا الزكوات من بهيمة الأنعام ومن الخارج من الأرض من الحبوب والثمار وفق مقادير معينة جاء تفصيلها في المدينة، وأما الصوم فإنما فُرض في السنة الثانية من الهجرة، وصام النبي ﷺ تسع رمضانات إجماعًا، وقد كان الجهاد متدرجًا، فلم يفرض الجهاد دفعة واحدة، وإنما كان في بداية الأمر قد أُذن لهم في دفع الصائل وقتال الذين يقاتلونهم، ثم بعد ذلك توسع الأمر حتى نزلت آية السيف؛ فكانت إيذانًا بالجهاد في سبيل الله وإدخال الناس في دين الله

حتى تكون كلمة الله هي العليا، ومعنى أن تكون كلمة الله هي العليا: أن تكون الهيمنة والقوة ونفاذ الكلمة لسلطان المسلمين، وتكون الأمور العامة بيد المسلمين، فمن أبى الإسلام وارتضى أن يدخل في عقد المسلمين؛ فإنه يبذل لهم الجزية.

وكذلك الأذان فإنه فرض في أول الإسلام في السنة الأولى[١]، وقيل: في السنة الثانية، فكان الأذان من أعظم شرائع الإسلام الظاهرة؛ لأنه يدل دلالة واضحة على هوية هذا المجتمع، فإذا دخل وقت الصلاة ولعلعت المآذن بهذا الصوت الندي، عُلم أن هذا البلد بلد إسلام.

ولو تواطأ أهل بلدة على ترك الأذان لَقاتَلهم الإمام على ترك هذه الشعيرة، كذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنه من أعظم الشرائع، ومن أعظم خصائص هذه الأمة، قال ربنا ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ يعني: إشاعة الحق وإبطال الباطل، وتلك رسالة هذه الأمة؛ إشاعة القيم والمعاني الصحيحة الصائبة، وإفشاء العلم النافع والعمل الصالح، ومقاومة البدع والخرافات والمعاصي والمنكرات، وهذا إنكار المنكر، فهما خطان متوازيان؛ الأمر بالمعروف من جهة البناء والتشييد، والنهي عن المنكر من جهة الصيانة والحفظ، وذلك من أخص خصائص الأمة المحمدية.

قوله: (أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ): يا لها من عشر! عشر سنوات

---

(١) المجموع شرح المهذب (٣/ ٧٧).

مملوءة بالعلم والجهاد والتعليم! ولو تأملت في حال عامة الخلق تمر بهم عقود السنين ولا يأتون بطائل ولا شيئًا ذا بال يستحق أن يُذكر، أما العشر سنوات التي أمضاها النبي ﷺ في المدينة، فكم تضمنت من غزوة، وسَرِية، وخطبة، وتعليم، وأحداث عظام؛ ببركة عمره ﷺ ونبوته.

وفاة النبي ﷺ

قوله: (وَتُوُفِّيَ صَلاة اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ): كما أخبر الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]، فتوفي النبي ﷺ في يوم اثنين في السنة الحادية عشرة من الهجرة في ربيع الأول، وكان قد بدأ مرضه في أواخر شهر صفر وأول شهر ربيع الأول، وقد شعر النبي ﷺ بمبادئه في حجة الوداع في السنة العاشرة، فكان يقول لجموع الناس: «**لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ**»(١)، فكان في هذا إشعار بأنه أدى المهمة، وأنزل الله تعالى عليه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وأنزل الله عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١ ـ ٣]، وكان من فقه ابن عباس رضي الله عنهما لما سأله عمر عن هذه الآيات أنه قال: «أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ إِيَّاهُ»(٢).

فكانت هذه إرهاصات ومقدِّمات تُنبئ عن دنو أجله، وقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «**يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي**

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (١٢٩٧)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٣٦٢٧)، من حديث ابن عباس.

مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ»[١]، وتلك القصة قد رواها البخاري ومسلم عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً أَتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ، فَأَكَلَ مِنْهَا، فَجِيءَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَهَا عَنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَتْ: أَرَدْتُ لِأَقْتُلَكَ، قَالَ: «**مَا كَانَ اللهُ لِيُسَلِّطَكِ عَلَى ذَاكِ**» قَالَ: ـ أَوْ قَالَ ـ: «**عَلَيَّ**»، قَالَ: قَالُوا: أَلَا نَقْتُلُهَا؟ قَالَ: «**لَا**»، قَالَ: «**فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»[٢]؛ يعني: أمسكه الله عنه يُرى سواده.

وقد ورد في خارج الصحيح أنه ﷺ نهس منها نهسة؛ ثم أمر أصحابه أن يمسكوا، وقال: «إن هذه الذراع أخبرتني أن فيها سمًّا»، وكان قد أكل منها بِشر بن البراء فمات لساعته رضي الله عنه، ولكن الله حفظ نبيه ﷺ[٣]، ثم قال النبي ﷺ في آخر عمره: «**فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ**»، فلو قال قائل: إن رسول الله ﷺ قد قتلته يهود لما كان بعيدًا من صواب.

توفاه الله تعالى في يوم اثنين، ودهش الناس دهشة عظيمة، لا سيما أنه في ذلك اليوم قد كان معه نوع نشاط، وأزاح الستر ورأى المسلمين وهم يصلون؛ فسُر واستنار وجهه وفرح المسلمون وظنوا أنه شفي، حتى إن أبا بكر الصديق ذهب يتفقد بعض ضياعه خارج المدينة، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ، ـ قَالَ إِسْمَاعِيلُ: يَعْنِي: بِالعَالِيَةِ ـ فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ،

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٤٤٢٨).

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٢٦١٧)، ومسلم، رقم: (٢١٩٠)

(٣) ينظر: دلائل النبوة، للبيهقي (٤/ ٢٦٠)، والبداية والنهاية (٤/ ١١٠)، والطبقات الكبرى، لابن سعد (٢/ ٢٠٣).

وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَبَّلَهُ، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللهُ المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤]، قَالَ: فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ،... قَالَتْ: فَمَا كَانَتْ مِنْ خُطْبَتِهِمَا مِنْ خُطْبَةٍ إِلَّا نَفَعَ اللهُ بِهَا لَقَدْ خَوَّفَ عُمَرُ النَّاسَ، وَإِنَّ فِيهِمْ لَنِفَاقًا فَرَدَّهُمُ اللهُ بِذَلِكَ، ثُمَّ لَقَدْ بَصَّرَ أَبُو بَكْرٍ النَّاسَ الهُدَى، وَعَرَّفَهُمُ الحَقَّ الَّذِي عَلَيْهِمْ وَخَرَجُوا بِهِ يَتْلُونَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إِلَى ﴿الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[1].

وهذا يدل على ثبات أبي بكر ورباطة جأشه وقوة علمه وفقهه في الملمات والأزمات، فتوفي رسول ﷺ، وتلقى الناس هذا الأمر، ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم لتكريمهم له غسلوه في أثوابه ولم يكشفوه ثم كفنوه في ثلاثة أثواب بيض سحولية، ثم صار الناس يدخلون إليه أرسالًا يُصلُّون عليه فرادى، دخل الرجال والنساء والولدان ثم دفن ﷺ ليلة الأربعاء، وقد أدى ما عليه، نسأل الله أن يجمعنا به في جنات النعيم، وهو الذي قام بين الناس في حجة الوداع قال: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا**

---

(١) أخرج هذه القصة البخاري بأرقام (٣٦٦٧ إلى ٣٦٧٠).

أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: **«اللَّهُمَّ، اشْهَدْ، اللَّهُمَّ، اشْهَدْ»** ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[1]، ونحن والله نشهد أنه قد بلغ رسالات ربه وأدى ما عليه.

قوله: (وَدِينُهُ بَاقٍ): قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣].

وعَنْ تَمِيم الدَّارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ»**[2].



---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (١٢١٨)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد، رقم: (١٦٩٥٧)، وقال محققو مسند أحمد، ط. الرسالة: «إسناده صحيح على شرط مسلم» (٢٨/ ١٥٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: (٣).

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إلا حَذَّرَهَا مِنْهُ، وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ.

بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ).

الشَّرْح

قوله: (وَهَذَا دِينُهُ لا خَيْرَ إلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إلا حَذَّرَهَا مِنْهُ): المشار إليه ما تقدم ذكره، وما سيأتي أيضًا.

قوله: (وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ): لأن أصل الدين إفراد الله تعالى بالعبادة.

قوله: (وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ)؛ أي: من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

قوله: (وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ): لأنه أصل الشرور، ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [الحج: ٣١]، وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»[1]، فأعظم الشر هو الشرك.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٤٤٧٧)، ومسلم، رقم: (٨٦).

قوله: (وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُه اللهُ وَيَأْبَاهُ): ما ترك رسول الله ﷺ شاذة ولا فاذة إلا ونبَّه الأمة عليها، حتى قَالَ أَبُو ذَرٍّ: «لَقَدْ تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا أَذْكَرَنَا مِنْهُ عِلْمًا»(١). الله أكبر! كل شيء تحتاجه الأمة أخبر عنه النبي ﷺ، وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ سَلْمَانَ، قَالَ: قِيلَ لَهُ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ! قَالَ: فَقَالَ: «أَجَلْ، لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ»(٢).

تأمل في حياتك اليومية ستجد أنه ما من مرفق من مرافق الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والأدبية، والأخلاقية إلا وقد بيّن الله ﷻ ونبيه ﷺ لنا منه علمًا نسير عليه ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾ [البقرة: ١٣٨].

قوله: (بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ): فالنبي ﷺ بُعث إلى الناس كافة؛ إنسهم وجنّهم، ليس كما يزعم بعض النصارى أنه بعث إلى العرب فقط؛ قياسًا على بعض الأنبياء السابقين، لا؛ بل رسالته ﷺ إلى الثقلين: الإنس والجن.

أما الإنس فالأمر ظاهر، فقد كان النبي ﷺ يوجه دعوته إلى الإنس، وكذلك الجن؛ فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: «انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ

---

(١) أخرجه أحمد، رقم: (٢١٣٦١)، وقال محقّقو مسند أحمد، ط. الرسالة: «حديث حسن.»

(٢) أخرجه مسلم، رقم: (٢٦٢).

الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا وَاللهِ الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ، وَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ٢]، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١]، وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ»[1].

وهذا ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١]. فقد بلغت رسالة النبي ﷺ إلى هذا العالم الغيبي غير المنظور.

وفي موقف آخر التقى بوفد من جن نصيبين، وقدموا إليه كما يفد إليه قبائل العرب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِدَاوَةً لِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَتْبَعُهُ بِهَا، فَقَالَ: «**مَنْ هَذَا؟**» فَقَالَ: أَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ، فَقَالَ: «**ابْغِنِي أَحْجَارًا أَسْتَنْفِضْ بِهَا، وَلَا تَأْتِنِي بِعَظْمٍ وَلَا**

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٧٧٣)، ومسلم، رقم: (٤٤٩).

بِرَوْثَةٍ». فَأَتَيْتُهُ بِأَحْجَارٍ أَحْمِلُهَا فِي طَرَفِ ثَوْبِي، حَتَّى وَضَعْتُهَا إِلَى جَنْبِهِ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مَشَيْتُ، فَقُلْتُ: مَا بَالُ العَظْمِ وَالرَّوْثَةِ؟ قَالَ: **«هُمَا مِنْ طَعَامِ الجِنِّ، وَإِنَّهُ أَتَانِي وَفْدُ جِنِّ نَصِيبِينَ، وَنِعْمَ الجِنُّ، فَسَأَلُونِي الزَّادَ، فَدَعَوْتُ اللهَ لَهُمْ أَنْ لَا يَمُرُّوا بِعَظْمٍ، وَلَا بِرَوْثَةٍ إِلَّا وَجَدُوا عَلَيْهَا طَعَامًا»**(١)، ووقع بعض ذلك أيضًا في العهد المكي قال علقمة: سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ: هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ الْجِنِّ؟ قَالَ: لَا وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَفَقَدْنَاهُ فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الْأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ، فَقُلْنَا: اسْتُطِيرَ أَوِ اغْتِيلَ. قَالَ: فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلَ حِرَاءٍ. قَالَ: فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فَقَالَ: **«أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ»** قَالَ: فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ وَسَأَلُوهُ الزَّادَ فَقَالَ: **«لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ»**. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ»**(٢).

وأنزل الله تعالى سورة كاملة ـ سورة الجن ـ تبيِّن قَبولهم لدين الله تعالى، ودخول بعضهم في دين الإسلام: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٤، ١٥].



---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٣٨٦٠).
(٢) أخرجه مسلم، رقم: (٤٥٠).

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ...﴾ [الأعراف: ١٥٨]**، وَأَكْمَلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾** [المائدة: ٣]**، وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾** [الزمر: ٣٠، ٣١]**).**

الشَّرْح

استدل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨﴾، فقد أمرنا الله تعالى بالإيمان به، وأمرنا أيضًا باتباعه، فلا يكفي مجرد التصديق بأنه رسول والثناء عليه؛ بل لا بد من الاتباع، ومعنى الإيمان بمحمد ﷺ: تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

قوله: (وَأَكْمَلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾): عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ: «أَنَّ رَجُلًا مِنَ اليَهُودِ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَأُونَهَا، لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ اليَهُودِ نَزَلَتْ، لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ عِيدًا. قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾. «قَالَ عُمَرُ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ»[١]، وهذه الآية تقطع الطريق على كل مبتدع؛ لأن الله قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾: فلا سبيل لأحد أن يضيف شيئًا من عنده إلى دين الله؛ فإن الله تعالى قد أكمل الدين، فمن زعم أنه ينبغي كذا ويستحسن كذا ويستحب كذا بلا دليل ولا بينة، فكأنما يطعن في كمال الدين، كأنما يقول: توفي رسول الله ﷺ وبقي عليه بقية لم يكملها، ولو لم يقل هذا بلسان مقاله، لكان قائلًا له بلسان حاله، لكن الله تعالى قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾؛ فتمَّت النعمة ورضي الله لنا الإسلام دينًا، ونحن نرضى بما رضي الله لنا، رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا نبيًّا.

قوله: (وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ـ ﷺ ـ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾**)**.

لما قرر الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الأصول الثلاثة وآخرها: معرفة نبينا محمد ﷺ وذكر طرفًا من سيرته، أخبر بأنه قد مات؛ وذلك لرفع شبهة من يدعِي أن النبي ﷺ لا يزال حيًّا أو أن روحه تتجول، أو غير ذلك من الدعاوى الباطلة، فنبينا محمد ﷺ قد مات بنص الكتاب وشهادة من حضره ولا ريب، شأنه شأن بني آدم.

قوله: (والدليل على موته قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾**)**؛ فالموت أمر كتبه الله تعالى على كل نفس.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٤٥)، ومسلم، رقم: (٣٠١٧).

قال الله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]؛ فلا شك أن الموت أدرك نبينا ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى، وشهد الناس بهذه الوفاة المحققة، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فقد مات نبينا ﷺ ولا ريب كما يموت سائر بني آدم.

وليس لبشر الخلد، لا النبي ﷺ، ولا الخَضر كما يدعي الصوفية في مخاريقهم، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِشَهْرٍ: «**تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ؟ وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ، وَأُقْسِمُ بِاللهِ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ**»(١)، وعَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، صَلَاةَ الْعِشَاءِ، فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ؟ فَإِنَّ عَلَى رَأْسِ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ**»(٢)؛ أي: أن ذلك الجيل وذلك القرن يفنى كله لا يبقى منهم أحد. فلو فرض جدلًا أنه كان أحد بعد على قيد الحياة فقد أدركه الموت ولا ريب.

وقوله: (﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾): قال ابن جرير الطبري رحمه الله: إن جميعكم أيها الناس تختصمون عند ربكم، مؤمنكم وكافركم، ومحقوكم ومبطلوكم، وظالموكم ومظلوموكم، حتى يؤخذ لكلّ منكم ممن لصاحبه قبله حق حقَّه. وهي خطاب لجميع عباده، فلم يخصص بذلك منهم بعضًا دون بعض، فذلك على عمومه

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (٢١٨)

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (١١٦)، ومسلم، رقم: (٢٥٣٧).

على ما عمَّه الله به، وقد تنزل الآية في معنى، ثم يكون داخلًا في حكمها كلّ ما كان في معنى ما نزلت به[١].



(١) تفسير الطبري (٢١/٢٨٨)، ط. الرسالة.

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(**وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]. **وقَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: ١٧، ١٨]. **وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: ٣١].

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧]).

❁ الشَّرح ❁

الإيمان بالبعث

كأن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما فرغ من ذكر الأصول الثلاثة التي يُسأل عنها الميت في قبره رأى التأكيد على مسألة الإيمان باليوم الآخر، وإن كان قد سبق ذكرها فيما مضى ضمن مسائل الإيمان.

قوله: (وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ)؛ أي: يُنشرون من قبورهم أحياءً. وقد جاء بهذا ناطق الكتاب: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾. هكذا أمر الله نبيه أن يُقسم بذاته الشريفة: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى﴾. وهذا أحد ثلاثة مواضع يؤمر فيها بالقسم بهذه الصيغة: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾. ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ﴾ [يونس: ٥٣]،

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].

وجاءت بهذه المؤكدات العظيمة؛ فالبعث حق، وفي الصحيح عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**»(١)، حفاةً: غير منتعلين، عراة: غير مكتسين، غرلًا: غير مختونين، بُهمًا: ليس معهم شيء؛ أي: أن الإنسان يَرِد بخلقه الكامل، حتى القلفة التي تكون على رأس الذكر، وتختن في وقت الصغر تعود مع صاحبها ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝﴾): مرجع الضمير في الجمل الثلاث إلى الأرض، وذلك أن الله تعالى خلق أبانا آدم من قبضة من تراب الأرض ـ من سهله ووعره وأحمره وأسوده ـ ولأجل ذا جاءت أخلاق بنيه على أنحاء متفرقة، فمنهم السهل، ومنهم الصعب، كما أن ألوانهم متفاوتة؛ لحكمة بالغة، قبض الله قبضةً من تراب الأرض، وجعل فيها الماء فكانت طينًا، ثم بعد ذلك يبست؛ فصارت بعد أن شكلها الرب ﷻ صلصالًا كالفخار، ثم نفخ فيها من روحه فاستحال خلقًا جديدًا.

قوله: (﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾): وذلك أن ابن آدم إذا مات دُسَّ في الأرض وَوُرِي الثرى، كما دل الله تعالى ابن آدم الأول الذي قتل أخاه على هذه السُّنَّة الكونية. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ﴾ [المائدة: ٣١]. فمنذ ذلك الحين علم الناس سنة الدفن، فيعود الإنسان ترابًا، تتحلل أجزاؤه، ويفنى ولا يبقى منه إلا

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٦٥٢٧)، ومسلم، رقم: (٢٨٥٩).

عَجب الذنب وهو العصعص، فمنه يُركَّب الخلق يوم القيامة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ، إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ**»(١). وكأن هذا الموضع يحتفظ بالصفات الوراثية لكل آدمي؛ فمنه يتركب خلقًا جديدًا حين يأذن الله تعالى بالبعث والنشور.

قوله: (﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾)؛ أي: من الأرض، لكن الأرض المبدلة، هي ذات الأرض في مادتها لكنها على نحو جديد؛ فالأرض التي يبعث عليها الناس يوم القيامة تمد مد الأديم، مسطحة كالقرصة، ليس فيها معلم لأحد، لا جبل يعلو عليه، ولا واد يكنّه؛ كما قال ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ۝١٠٩ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۝١١١﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١١١].

فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ، لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لِأَحَدٍ**»(٢).

لن تجد تصويرًا لذلك المشهد العجيب الرهيب أبلغ من هذا التصوير، أرض جديدة تنشق عن المودَعين فيها من لدن آدم ﵇، ممن كانت أطوالهم ستون ذراعًا في السماء إلى من هم في مثل أطوالنا، إلى ما يكون من الخلق بعد ذلك، ومعهم الوحوش والعشار والدواب والطير

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٤٨١٤)، ومسلم، رقم: (٢٩٥٥).

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٦٥٢١)، ومسلم، رقم: (٢٧٩٠).

والبهائم ومن شاء الله تعالى، في مشهد مهيب ومسيرة عجيبة، يتجهون إلى الأرض التي سيحاكمون عليها ويقضى بينهم.

قوله: (﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨﴾): هذا أيضًا موافق للآية الأولى، فهذه الأرض منها أنبتنا الله، فإن جزئيات أبداننا ومكوناتنا مرجعها إلى عناصر الأرض المعروفة؛ فمنها نبتنا ونشأنا، إما عن طريق ما يرضعه الطفل من والدته، أو عن طريق الغذاء الذي نتناوله.

قوله: (﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨﴾): فالإعادة تكون بالموت والدفن، ثم الإخراج يكون يوم القيامة بعد النفخ في الصور.

فقد وقَّت الله وقتًا معلومًا لعمر هذه الدنيا وأخفاه عن العباد ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥﴾ [النمل: ٦٥]، فلا أحد يعلم متى الساعة، وقد أخبر الله تعالى أنه لا يجليها لوقتها إلا هو: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: ١٨٧]، فكل من ادعى العلم بالساعة ونهاية العالم؛ فاعلموا أن دعواه باطلة، فإنه يخرج علينا بين الفينة والفينة دعوات تزعم أن القيامة وخراب العالم ونهاية الدنيا في تاريخ كذا وكذا، كلها دعاوى باطلة مردودة بنص القرآن، يجب تكذيبها وردها على قائلها.

الثواب والعقاب

قوله: (**وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ**): ما خلق الله تعالى هذه الخليقة عبثًا؛ بل خلقها الله تعالى لحكمة، هذه الحكمة هي

التي نص عليها بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقال منكرًا على من زعم عدم الحكمة أو غاب عنه ذلك أو لم يؤمن به: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٥]. لا يمكن أن يقيم الله ﷻ هذا البناء العالي وهذه الأرض الممهدة، وينشر فيها هذه الخلائق، ويبث فيها رجالًا ونساءً لا لحكمة! فالله ينزه عن العبث، بل ذلك لحكمة بالغة، ولأجل ذا قال: وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ.

فحين يبعث الناس ويسيرون إلى أرض المحشر يطول بهم المقام، ينتظرون الفصل في يوم طويل جدًّا جدًّا، يلحقهم فيه من العنت والعناء الشيء العظيم؛ إلا من خفف الله تعالى عنه ذلك، قال ربنا: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر: ١٠]، ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر: ٦ ـ ٨]. عياذًا بالله.

ففي ذلك الموقف العظيم يعرق الناس بعد أن تدنو الشمس منهم قدر ميل، فعن سُلَيْم بْنِ عَامِرٍ، حَدَّثَنِي الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ**»، قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ، أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ قَالَ: «**فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا**» قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ[1]. وهذا من الغيب الذي يجب

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (٢٨٦٤).

أن نؤمن به، ولا يجوز أن تعارض مثل هذه الأخبار الغيبية بالنظرات الفيزيائية، كأن يقول قائل: كيف يستقيم هذا والأرض مستوية منبسطة، وقانون الأواني المستطرقة عند أهل الفيزياء يمنع مثل هذا؟! لا يجوز أن تعارض النصوص بمثل هذا! الذي أوجد هذه القوانين الطبيعية قادر على إبطالها، وخبر الله حق، وخبر نبيه ﷺ حق، وهذه قاعدة يجب على الإنسان أن يُعملها فيما بلغه من كلام رب العالمين، وصح من كلام سيد المرسلين، وألا يعارضه بمحض العقول بل يقابله بالقبول والتسليم، وأنه حق على حقيقته.

ثم بعد ذلك تنجفل الخلائق إلى أبينا آدم عليه السلام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِلَحْم فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ** عليه السلام **فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي** عز وجل **قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ**

يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ ـ فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الْحَدِيثِ ـ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ

وَحِمْيَرَ ـ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى ـ»[(١)] وورد نحوه عن أنس مرفوعًا ثم تلا: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩] قال: «وَهَـذَا المَقَامُ المَحْمُودُ الَّذِي وُعِدَهُ نَبِيُّكُم ﷺ»[(٢)].

فلهذا كانت هذه الأمة السعيدة هي أول الأمم يقضى بينها يوم القيامة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ...**»[(٣)].

فيقع القضاء بين العباد، ويقع في ذلك اليوم أمور عظيمة مهولة، يحار العقل في التفكر بها: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ٢٦﴾ [الفرقان: ٢٥، ٢٦].

فتنشق كل سماء كما في بعض الآثار، وينزل ملائكتها فيحيطون بأهل الأرض إحاطة السوار بالمعصم، فتنشق السماء التي بعدها فيحيطون بمن قبلهم حتى يكونون سبع حِلق حول أهل الأرض. ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾ [الرحمٰن: ٣٣].

يكون ذلك كالإرهاص والمقدمة لتنزل الرب سبحانه وتعالى ومجيئه لفصل القضاء بين العباد، فينزل ربنا نزولًا حقيقيًّا، ويجيء مجيئًا حقيقيًّا، ويأتي إتيانًا حقيقيًّا على الوجه اللائق به ـ سبحانه ـ، لا ندرك كيفية ذلك ولا نتخيله، لكن نثبت معناه حقًّا وصدقًا، فيجيء الرب للقضاء بين العباد يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٤٧١٢) واللفظ له، ومسلم، رقم: (١٩٤).
(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٧٤٤٠).
(٣) أخرجه البخاري، رقم: (٢٣٨)، ومسلم، رقم: (٨٥٥) واللفظ له.

قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾): هذه نتيجة الحساب: الجزاء، والحساب كما تقدم على نوعين: حساب المؤمنين، وحساب الكافرين:

فأما حساب الكافرين: فإنه ليس حسابًا بمعنى الموازنة بين الحسنات والسيئات؛ لأنه لا حسنات لهم: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]. فليس في الكفة الأخرى شيء يوضع أصلًا؛ لأن الشرك لا تبقى معه حسنة، وإنما يقررون بذنوبهم، فيعترفون بها؛ إظهارًا للحق، ثم يؤمر بهم فيلقون في جهنم ـ عياذًا بالله ـ.

وأما المؤمنون فإن حسابهم على ضربين: عرض ومناقشة:

فالعرض: يكون لمن سبقت له من الله الحسنى، ممن أراد الله تعالى به خيرًا، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُدْنَى الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عز وجل، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»(١).

ما أسعده! ما أهنأه! حينما يقرع سمعه: «**فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**». تلكم هي السعادة الحقيقية؛ سعادةً لا يشقى بعدها أبدًا.

وأما المناقشة فإنها تكون في حق من أراد الله تعالى أن يعذبهم من عصاة الموحدين بقدر ذنوبهم، فإنه يدقق معهم في الحساب؛ لأنه يراد

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٤٦٨٥)، ومسلم، رقم: (٢٧٦٨).

بهم أن يعذبوا، فحينئذ يعذبون بقدر ذنوبهم، ثم يكون مآلهم إلى الجنة، على تفاوت فيما بينهم.

ولهذا أخبر النبي ﷺ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ ـ أَوْ قَالَ: بِخَطَايَاهُمْ ـ فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ»**[1]، فيدخلون الجنة؛ فالجزاء بعد الحساب. والمجازاة إما في الجنة وإما في النار: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: ٧]. لتتم الحكمة البالغة من هذه الخليقة، فالله تعالى ما خلق الدنيا عبثًا، وإنما خلقها لحكمة بالغة؛ ليعلم من يعبده ومن يعصيه، من يكون أهلًا لدار كرامته، ومن يكون أهلًا لدار عذابه ونقمته.

منكرو البعث.

قوله: معقبًا على هذه القضية العظيمة: (**وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾).

حكم من كذب بالبعث

أثبت الله تعالى البعث في هذه الآية إثباتًا لا مزيد عليه، حيث أمر نبيه أن يقسم بذاته ـ سبحانه ـ ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾. واللام لام القسم، والنون نون التوكيد الثقيلة. فالبعث حق، ومن كفر بالبعث؛ فقد كفر بالله العظيم.

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: (١٨٥).

ومنكرو البعث أصناف وطوائف:

الدهرية، والدهرية ملاحدة يقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٤]. قال قائلهم: «أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر» هذه مقالة الدهرية.

وقريب من هذه المقالة مقالة القائلين بتناسخ الأرواح، وهم أمم ممن يسكن شرق الكرة الأرضية من الهندوس، والبوذيين، ومن على شاكلتهم، يعتقدون عقيدةً باطلةً يقال لها تناسخ الأرواح، يزعمون أن الإنسان إذا مات ارتفعت روحه ثم انتسخت في جسد آخر، فإن كان في الدورة الأولى قد سلك سلوكًا حسنًا وعمل عملًا حسنًا، فإن روحه تنتسخ في بدن أرقى من البدن الذي كان فيه، وإن كان عمله في الدورة الأولى سيئًا ومشينًا؛ فإنه يعاقب بأن تنتسخ روحه في بدن أحقر من البدن الذي كان فيه، فتنتسخ في جسد صرصار أو حشرة أو غير ذلك، وتظل الدنيا تدور على هذا، لا نهاية لها.

الفلاسفة: فإن الفلاسفة ينكرون البعث الجسماني، ولا يعتقدون بوجود البعث، ويقولون بقدم العالم وخلوده.

الباطنية: الذين يزعمون ليس ثَمَّ بعث ولا نشور، وأن الأنبياء لم يُرسلوا من عند الله، وإنما هم قوم أذكياء، خاطبوا الناس لكي يحملوهم على الاستقامة والسلوك الحسن، فقالوا: إن لكم ربًّا جبارًا قهارًا فعالًا... إلخ، وأنه قد جعل يومًا آخِر، يجازى فيه المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، وليس هناك شيء من ذلك البتة، إنما هي مجرد دعوى، ومنهم **(القرامطة)** الرافضة.

ولأجل ذا، كان الإيمان بالبعث من أصول الإيمان، في جميع الشرائع، لا يمكن أن توجد شريعة من عند الله إلا والإيمان بالبعث،

والإيمان باليوم الآخر، من آصل أركانها: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [البقرة: ٦٢]. هذه الثلاث هي أصول الدين في جميع الشرائع: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح.

وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر. من شواهد ذلك قول الله تعالى:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

فالإيمان باليوم الآخر من أصول الإيمان العظيمة التي تنضبط بها الأحوال والأعمال والسلوك والأخلاق وسائر الأمور، ولا يمكن أن يتصور إيمان بدون الإيمان باليوم الآخر؛ ولأجل ذا كان من كذب بالبعث كافرًا.

وقد تنوعت دِلالة الكتاب والسُّنَّة على إثبات البعث بأنواع الأدلة، منها:

هذا **الدليل النقلي** وما شابهه، من نصوص الكتاب والسُّنَّة التي تبلغ مبلغ التواتر، فكتاب الله، لا سيما القرآن المكي، مليء بالآيات الدالة على إثبات البعث؛ ويكفي أن تقرؤوا جزء (عم)؛ لتروا كيف أعاد الله تعالى وأبدى في إثبات اليوم الآخر: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [النازعات: ٣٤]، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾ [عبس: ٣٣]، ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ [التكوير: ١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ١]؛ فالقرآن المكي مليء بالأدلة الدالة على إثبات البعث، وكذا السُّنَّة النبوية.

الدليل العقلي: فإن العقل أيضًا يدل على إثبات وإمكانية البعث؛ كما قال ﷻ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧]؛ فالذي ابتدأ الخلق قادر على إعادته، فممَّ تعجبون أيها المنكرون!.

ولما جاء أُبي بن خلف وهو من زعماء المشركين إلى نبينا ﷺ بعظم رميم وفتَّه أمامه وقال: يا محمد، أتزعم أن ربك يحيي هذا بعد أن صار رميمًا؟ قال: «**نعم، ويبعثك ويدخلك النار، قال الله تعالى**: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]»(١).

النظر الصحيح: إذ أن كل عاقل يأبى أن يقبل أن يُنشئ الله الخليقة، ويرزق الله الناس ويطعمهم ويسقيهم ويأمرهم وينهاهم ثم ينتهي الأمر بلا بعث.

قد أخبرنا سبحانه بأنه خلق السماوات والأرض بالحق، ألسنا نرى الظالم يموت ظالمًا؟ والمظلوم يموت مظلومًا؟ ألسنا نرى المحسن يموت محسنًا؟ والمسيء يموت مسيئًا؟ فأين الحق؟ ثَمَّ فصل آخر، ثَمَّ تتمة؛ حتى يرد الحق إلى نصابه، ويجازى الظالم بظلمه، والمظلوم عن مظلمته، والمحسن على إحسانه، والمسيء بإساءته، النظر يقتضي بأنه لا بد من يوم آخر تعاد الأمور فيه إلى نصابها.

الدليل الحسي: والمقصود به: الأدلة المشاهدة المدركة بالحواس: كالسمع والبصر، فقد قامت أدلة حسية على إثبات البعث، فقد ذكر الله تعالى في سورة البقرة خمس أدلة حسية على إثبات البعث:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٥٥٤)، ط. الرسالة.

المثال الأول: بنو إسرائيل حينما قالوا: أرنا الله جهرًا. فأخذتهم الصاعقة وماتوا، قال الله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

المثال الثاني: قصة البقرة، وهو أن رجلًا من بني إسرائيل قُتل، واختلف في قاتله، فاحتكم بنو إسرائيل إلى موسى بن عمران، فأمرهم أن يذبحوا بقرةً ثم اختلفوا في صفة البقرة إلى أن وقعوا على البقرة بالمواصفات التي ذكرها لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: ٧٣]. فضربوه بجزء من هذه البقرة، فقام ذلك الميت من موتته، وقال له موسى: من قتلك؟ قال: ابن أخي. وكان ابن أخيه قد قتله ليأخذ ميراثه.

المثال الثالث: القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، فروا من بلدتهم خوفًا من شيء معين، يخشون الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم مرةً أخرى.

المثال الرابع: قوله: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، الطعام والشراب الذي هو عرضة للخراب والفساد والتعفن بسرعة، أبقاه الله تعالى على حاله، ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ [البقرة: ٢٥٩]. الحمار الذي هو أقوى بنية، جعله الله تعالى عظامًا بيضاء تلوح، قال: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٩]: فإذا بالرجل يبصر حماره الذي كان رضامًا من عظام، إذا بهذه العظام يتراكب بعضها على

بعض، وإذا باللحم يكسوها، وإذا بها تنتهي إلى حمار ينهق، عجبًا! ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

المثال الخامس: قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وفي هذا دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن منه ما هو أزيد من بعض حتى في التصديق، ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ يعني: قطع هذا الطير، واجعل على هذا الجبل جزءًا، وعلى هذا الجبل جزءًا، وذاك جزءًا، وذاك جزءًا، وهكذا في كل واحد من هذه الطيور، قال: ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. فدعاهن، فالتأمت أجزاؤهن، وأتين يخفقن ويسعين نحو إبراهيم، ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وبالإضافة إلى هذه الأدلة:

ما جرى لأصحاب الكهف الذين ناموا ثلاثمائة وتسع سنين، ثم بعثهم الله ﷻ، وما أجراه الله تعالى على يدي عيسى عليه السلام إذ كان يحيي الموتى بإذن الله.

هذه كلها أدلة حسية تدل على إمكان البعث.

وبالجملة فإن من تأمل في الأدلة؛ أيقن يقينًا لا شك فيه أنه لا بد من البعث، فقد تواترت على إثبات البعث وإمكانه، فيجب علينا أن نعتني بهذا الجانب؛ فإن إيمان المؤمنين بالبعث يتفاوت: بعض الناس إيمانه بالبعث إيمان يقظ، إيمان حي، كلما هَمَّ أن يُقدم على عمل قام وازع الله في قلبه؛ فقال: احذر! أمامك يوم آخر، أمامك بعث ونشور؛ فأحجم وأمسك عن معصية الله.

وبعض الناس يتبلد هذا المعنى في قلبه، وكأنها قصص ومرويات

وآثار تحكى! وكأنه ليس معنيًّا بها. فإذا أردت يا عبد الله أن تربي نفسك، وأن تعظ نفسك موعظة حسنة، فالله الله، أكثر من ذكر اليوم الآخر والموت، لا إلى الحد الذي يُفسد عليك عيشك، فأنت لا تحتاج من مخافة الله إلا إلى القدر الذي يحجزك عن معصية الله؛ فأقم في قلبك من مخافة الله، ومن الاستعداد لليوم الآخر، ما يحجزك عن معصية الله ويحفزك على طاعة الله وحسب.



❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ).

الشَّرْح

بعثة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

ذكر الشيخ هذه المسألة المتعلقة بإرسال الرسل، وإن كان أيضًا قد جرى لها ذكر سابق.

قوله: (وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ): والفرق بين

البشارة والنذارة: البشارة هي: الإعلام المقرون بخبر سار، والنذارة هي: الإعلام المقرون بخبر مخُوف. ولا شك أن أنبياء الله تعالى بعثوا مبشرين ومنذرين، مبشرين من أطاع الله تعالى بالجنة، منذرين من عصى الله تعالى بالنار.

قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾): إذن الحجة الوحيدة التي يمكن أن يحتج بها الآدميون على ربهم ﷻ أن يقول قائلهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير؛ فقطع الله تعالى هذه الحجة ببعثة الرسل، فلا يبقى للناس حجة إذا أرسل الله تعالى الرسل؛ فالحجة الرسالية لا بد من قيامها، قال ربنا ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، فإذا افترضنا أن قومًا أو فردًا لم تقم عليهم الحجة الرسالية، فما حالهم؟

نقول: المحكمات تدل على أن الله تعالى لا يعذب إلا من قامت عليه الحجة، قد يقول قائل: كم مناطق نائية على نهر الأمازون في أمريكا الجنوبية، وفي مجاهل أستراليا، وفي غابات إفريقيا لم يسمعوا بمحمد ﷺ ولا بدين الإسلام، ثَمَّ أقوام ماتوا في الفترة لم يبلغهم رسالة نبي، ما حال المجهول؟ ما حال الطفل الذي مات في صغره؟ ما حال كذا وكذا؟.

أجاب النبي ﷺ عن هذا الإيراد؛ فعَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَرْبَعَةٌ يَحْتَجُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرَمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرَمُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ، مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ، فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ، قَالَ:**

فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا»[(١)]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، مِثْلَ هَذَا غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ فِي آخِرِهِ: «**فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا يُسْحَبُ إِلَيْهَا»**[(٢)].

فنحن نعلم أنه لا يهلك على الله إلا هالك، وأن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة، هذا هو المحكم الذي نتمسك به ونعتصم به، ونعلم أن الله تعالى لا يوقع عذابًا بأحد حتى يقيم عليه الحجة الرسالية كما قال هاهنا: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾، وفي هذا دليل على بطلان الاحتجاج بالقدر شيئًا بعض الناس يحتج بالقدر، إذا قيل له: يا فلان لَمَ عصيت الله؟ قال: والله هذا شيء كتبه الله علي، يا فلان لِمَ لَمْ تفعل شيئًا مما أمرك الله به؟ قال: ما كتبه الله، لو كتبه الله لفعلته؛ فبعض البطالين العطالين يحتج بالقدر على ترك الواجبات وفعل المحرمات، فهل يتم استدلاله بالقدر على مراده، ويُعذر بهذه الحجة؟ لا؛ لأن الله تعالى لم يثبت إلا حجة واحدة يمكن أن يحتج بها الآدميون: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾، لو كان في القدر حجة، لقبل الله حجتهم؛ لكن الله رد حجتهم، فأخبر الله تعالى عن هؤلاء المحتجين بالقدر أنهم يقولون: قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فسمى الله دعواهم كذبًا، والكذب هو مخالفة

---

(١) أخرجه أحمد، رقم: (١٦٣٠١)، وصحَّحه ابن حبان، رقم: (٧٣٥٧)، وحسَّنه الضياء المقدسي في المختارة (٤/ ٢٥٥)، رقم: (١٤٥٤)، وقال محقِّقو صحيح ابن حبان طبعة الرسالة: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه، فقد روى له النسائي وغيره». (١٦/ ٣٥٧).

(٢) أخرجه أحمد، رقم: (١٦٣٠١)، وحسَّنه الضياء المقدسي في المختارة (٤/ ٢٥٥)، رقم: (١٤٥٥)، وقال محقِّقو المسند طبعة الرسالة: «حديث حسن».

الخبر للواقع، ثم قال: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ولو كان لهم حجة في القدر ما أذاقهم الله بأسه، ثم قال ثالثًا: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ يعني: هل اطلعتم على كتابكم وقدركم السابق، وبناءً على اطلاعكم علمتم بأن هذا مكتوب عليكم؛ فسلكتم هذا السبيل؟ لا والله ما اطلعوا على قدرهم مسبقًا، إذن حقيقة الأمر: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨]، إذن لا حجة لكم في القدر.

إذن هذه هي مهمة الرسل: البشارة والنذارة وقطع الطريق على الاحتجاج على الله ﷻ.

قوله: (وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عليه السلام، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ: والدليل على أولية نوح قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾): وقال نبينا ﷺ في حديث الصور: «**يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ**»[(١)]؛ إذن فقد ثبت بهذين النصين أن نوحًا عليه السلام أول نبي وأول رسول، وقد ذكرنا لكم فيما مضى الفرق بين النبي والرسول، وخلاف العلماء في تحديد هذا الفارق، وبهذا يتبين خطأ من زعم أن أول الأنبياء هو إدريس عليه السلام، وهذا يوجد كثيرًا، حتى إن الناس يتداولون بعض المصورات يسمونها شجرة الأنبياء ويكون مرسومًا فيها إدريس بين آدم وبين نوح عليه السلام؛ فهذان النصان يثبتان أن أول الأنبياء وأول المرسلين: هو نوح عليه السلام، وأن إدريس جاء فيما بعد.

والدليل على أن خاتمهم محمد ﷺ لم يذكره الشيخ هاهنا، قال الله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فآخر الأنبياء

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٤٧١٢) واللفظ له، ومسلم، رقم: (١٩٤).

هو محمد ﷺ، فلا نبي بعده بنص القرآن. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ. قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ**»(١)، وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى يَعْبُدُوا الْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»(٢).

فمن ادعى النبوة بعد نبينا ﷺ؛ فدعواه باطلة، وأدعياء النبوة هذا عددهم كما أخبر النبي ﷺ ثلاثون، وقد وقع ادعاء النبوة في أواخر عهد النبوة، إلى يومنا هذا لم يزل أدعياء النبوة يتواردون؛ فممن ادعى النبوة قبل وفاته ﷺ مسيلمة، وبعد وفاته سجاح والأسود العنسي وطليحة بن خويلد الأسدي، ولم يزل يخرج في مثاني التاريخ من يدعي النبوة كما ادعاها من تنتسب إليه البابية ومن ينتسب إليه البهائيون وكذلك القديانيون في الدول الشرقية، لم يزل يوجد من يدعي النبوة، والمقصود أن يكون ذلك الدَّعي له أتباع وهيلمان، أما المجانين الذين يدعون النبوة، فهؤلاء لا حصر لهم كثر وليسوا في الحسبة؛ المقصود من يدعي النبوة، ويكون له أتباع وطائفة فهؤلاء كما قال النبي ﷺ ثلاثون كذابون، ولا أكذب من هؤلاء؛ فالله قد أكذبهم ونبيه ﷺ قد أكذبهم.

قوله: (وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ):

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (٣٥٣٥)، ومسلم، رقم: (٢٢٨٦).

(٢) أخرجه أبو داود، رقم: (٤٢٥٢)، والترمذي، رقم: (٢٢١٩). وقال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ»، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: «بسند صحيح على شرط مسلم، وقد أخرجه في صحيحه بدون هذه الزيادة وغيرها»، (٤/ ٢٥٢).

إي والله، أقام الله الحجة على كل أحد، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤].

قوله: (يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾**، وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ)**: وهذه دعوى الأنبياء جميعًا، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، هذا مشروع الأنبياء جميعًا. ولا بد من اقتران هاتين الركيزتين معًا: الأمر بعبادة الله، واجتناب الطاغوت كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، لا يمكن إلا أن يجمع الإنسان بين الأمرين: الكفر بالطاغوت الذي يحصل به التخلية، والإيمان بالله الذي يحصل به التحلية، فلا بد من البراءة من الشرك تمامًا، وهذا هو الموافق للشق الأول من جملتي الشهادة: لا إله، ثم تتمتها بالإيمان بالله ﷻ: إلا الله؛ فالكفر بالطاغوت والإيمان بالله قضيتان متلازمتان لا انفكاك بينهما، ولا يمكن أن يتصور مؤمن بالله وبالطاغوت في آنٍ واحد، هذان أمران لا يجتمعان، ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، لقد كانوا مؤمنين بالله ولكن ما كانوا موحدين بالله، لا بد من الإيمان بالله وحده.

قوله: (قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ).

تعريف الطاغوت

هذا في الواقع هو أحسن وأجمع تعريف للطاغوت، وأصل **الطاغوت لغة**: صيغة مبالغة من الطغيان، ومعنى طغى الشيء؛ أي: تجاوز، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١﴾ [الحاقة: ١١]، ﴿لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾؛ أي: تجاوز منسوبه المعتاد في قصة الطوفان، ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾؛ أي: حملنا أسلافكم، ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١﴾؛ أي: السفينة؛ فالطغيان معناه التجاوز؛ ولهذا عرَّفه ابن القيم رحمه الله بقوله: مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ: كل إنسان له حد، لا يمكن أن يتجاوز حده، كما قال النبي ﷺ لابن صياد قال: «**اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ**»[1]، فكل إنسان له حد.

قوله: (مِنْ مَعْبُودٍ). المقصود: ممن رضي أو دعا إلى عبادة نفسه، أما لو كان معبودًا بغير رضاه، فهو بريء، فعيسى عليه السلام وأمه والعُزير برآء، ولا يدخلون تحت هذا الحد؛ لأنهم ما عُبدوا برضاهم، حاشا وكلا، والملائكة أيضًا ما عُبدوا برضاهم، إذن من معبود ـ كما سيفصله لاحقًا ـ إما: أن يكون دعا لعبادة نفسه أو رضي أن يعبده غيره.

قوله: (أَوْ مَتْبُوعٍ): يعني: يُتبع في غير هدى من الله، كما يحصل من الأحبار والرهبان وعلماء السوء الذين يحلون الحرام، ويحرمون الحلال فيتبعوهم؛ لما دخل الصحابي عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: «**يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ**»، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ،**

---

(١) أخرجه البخاري، رقم: (١٣٥٤)، ومسلم، رقم: (٢٩٣٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»[١]، وكذلك علماء السوء الذين يسوغون للناس أو للحكام الحكم بغير ما أنزل الله، وإفساد الدين وتسهيل الشهوات، فكذلك يدخلون في حد المتبوع.

قوله: (**أَوْ مُطَاعٍ**)؛ أي: من كان له سلطان فأطيع على غير هدى من الله ﷻ، ودعا إلى طاعته في خلاف ما أمر الله؛ فإنه يدخل في حد الطاغوتية، فهذا التعريف الذي ذكره ابن القيم ﵀ يجمع أنواع الطغيان.



(١) أخرجه الترمذي، رقم: (٣٠٩٥).

❁ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرةٌ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لا إِلٰه إِلا اللهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: (رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ). وَاللهُ أَعْلَمُ).

الشَّرْح

رُؤُوسُ الطواغيت

بعد أن عرَّف المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الطاغوت تعريفًا عامًّا، خصَّ وفصَّل.

قوله: (وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرة): الطواغيت: جمع طاغوت، وهم كثر؛ لأنه إذا كان حد الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع؛ فالواقع أن هذا الوصف ينطبق على أعيان كثر.

قوله: (وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ): لكن لهم رؤوس، والمقصود بالرؤوس: الزعماء.

قوله: (إِبْلِيسُ): إبليس أصل الشر، وهو الذي تقلد إضلال بني آدم، وهو الذي أصابه داء الكِبْر بسبب هذا الطغيان في نفسه؛ فهوى به

إلى أسفل سافلين، ذلك أن إبليس قد بلغ من العبادة ما بلغ به مصاف الملائكة ـ وإن لم يكن منهم ـ يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]؛ بل كان إبليس من الجن كما أخبر الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]. فماهية إبليس: ماهية نارية، ليس من الملائكة الذين خلقهم الله تعالى من نور؛ لكنه كان مجتهدًا في العبادة والتقرب فبلغ في سعيه هذا ودأبه أن بلغ مصاف الملائكة؛ لكن خانه أصله الفاسد، فإن الله تعالى لما أمر الملائكة الكرام بالسجود لآدم خرُّوا سجَّدًا؛ لكمال عبوديتهم لله تعالى. أما إبليس فقد سرى الكبر في نفسه، وقال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢]، فـ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾، أبى أن ينصاع لأمر الله عز وجل، ولحظ المأمور به، ولم يلحظ الآمر وهو الله تعالى، فلا شك أن هذا هو أصل الطغيان، ثم إنه تقلد إضلال بني آدم، و﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]. فكان أن جرت سُنَّة الله تعالى بهذا.

قوله: (لَعَنَهُ اللهُ): هذا ـ والله أعلم ـ على سبيل الخبر؛ يعني: أنه قد وقع اللعن عليه من الله؛ لأن اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى، وقلنا: إن الأغلب أن يكون على سبيل الخبر لا على سبيل الدعاء؛ لأنه قد ورد آثار في النهي أن يقول الإنسان: تَعِس الشيطان. وربما قيس عليها: لعن الله الشيطان. فعن أبي المليح عن رجل قال كنت رديف النبي ﷺ فعثرت دابتي فقلت: تعس الشيطان. فقال ﷺ: «**لَا تَقُلْ: تَعِسَ الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ، وَيَقُولَ: بِقُوَّتِي، وَلَكِنْ قُلْ، بِسْمِ اللهِ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى**

يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ»(١)؛ يعني: أنه ينتشي لهذا الدعاء، كأنما وقع ما وقع بفعله وتأثيره؛ فلهذا ورد النهي عن ذلك، أما على سبيل الخبر فلا شك أن الأمر كما قال الله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩]. فإبليس هو رأس الطواغيت، ولم يزل إبليس يسعى في إضلال بني آدم.

واعلموا أن أغلى وأعلى ما يطمح إليه الشيطان هو إيقاع العباد في الشرك الأكبر؛ لأنه يحصل به إلقاء بني آدم معه في قعر النار، فإن لم يتمكن من الشرك الأكبر، نقلهم إلى الشرك الأصغر، فإن لم يحصل ذلك منهم نقلهم إلى البدعة؛ لأن البدعة خروج عن سمت الدين وإضافة إلى دين الله ما ليس منه؛ لأنها باب واسع يفضي إلى أمور أخرى، فإن لم يظفر منهم بالبدعة نقلهم إلى الكبائر؛ لأن الكبائر موجبات للوقوع في النار، إلا أن يغفر الله، فإن لم يظفر منهم بالكبائر نقلهم إلى الصغائر، فإن لم يظفر منهم بالصغائر نقلهم إلى الوقوع في المكروهات وترك الأولى، فلا يزال يفتل في الذِّروة والغارب حتى ينال من ابن آدم ما يستطيع، فهو عدو مبين.

ولأجل ذا يجب أن نستشعر عداوة الشيطان لنا، فإن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [فاطر: ٦]. لكن ما ثمرة ذلك؟ ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر: ٦]. جميع المؤمنين مقرُّون أن الشيطان عدو، لا تردد عندهم في ذلك، لكن الجملة الثانية: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾. لا ينتبه لها إلا القليل من الناس. وشعورك بعداوة الشيطان لك، وتيقنك من ذلك،

---

(١) أخرجه أبو داود، رقم: (٤٩٨٤)، والنسائي في الكبرى، رقم: (١٠٣١٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم: (٣١٢٨).

يجعلك متيقظًا متنبهًا. فلو قيل لك: إن فلانًا من الناس يكيد لك ويخطط لك، ويريد أن يوقع بك، ويتحين الفرصة لإيصال الأذية إليك، فإنك حينما تسير في الطريق تكون منتبهًا، تنظر عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك، وتترقب أن يأتيك أحد من خلفك، مستعدًّا للمواجهة في كل حين؛ لأنك تعلم يقينًا أن ثَم عدو يتربص بك.

لو كنا نشعر بهذا في خبيئة قلوبنا تجاه الشيطان لكان لنا شأن آخر، لما كنا لقمةً سائغةً وفريسةً سهلةً لمكائد الشيطان وأحابيله، لكن لأننا نغفل وننسى أن ثَمَّ عدو يتربص بنا، يستجرنا ويوقعنا فيما حرم الله تعالى علينا، فانتبه لهذه الآية العظيمة: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. هذا هو الطاغوت الأكبر ورأس الطواغيت الخمسة.

قوله: (وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ)؛ يعني: أنه قُدِّمت له صنوف العبادة؛ من الدعاء، والاستعانة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، وهو يرمق ذلك لا يغير ساكنًا، ولا ينكر منكرًا؛ فالراضي كالفاعل، هذا طاغوت، وإن قال: لم آمر بذلك، ولم أحملهم عليه؛ بل هم فعلوا ذلك. يقال: إن رضاك بذلك وعدم نكيرك له، يلحقك بالطواغيت، فإنك عُبِدت وأنت راضٍ، وهذا يحصل لكثير من المتبوعين والمطاعين الذين يتقدم لهم الناس ويعظمونهم ويغلون فيهم، يلحسون أيديهم، ويتمسحون بهم، ويطلبون منهم ما لا يُطلب إلا من الله ﷻ، يطلبون منهم الغوث والمدد في أمور لا يقدر عليها إلا الله ﷻ، ثم يستحسنون ذلك! كما يقع لبعض الممدوحين:

فَكُن كَما شئتَ يا مَن لا شَبيهَ لَه ... أو كَيفَ شِئتَ فَما خَلقٌ يُدانيكا

فيعجبه ذلك ويقول أحدهم لآخر:

ما شئتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ ... فاحكُمْ فأنتَ الواحد القهّارُ

ويعجبه ذلك، فهذا من الطواغيت.

قوله: (وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ): من دعا إلى عبادة نفسه أشد ممن عبد وهو راض؛ لأنه حمل الناس وندبهم إلى أن يعبدوه من دون الله ﷻ، ومن هؤلاء فرعون الذي تباهى واستخف فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، بل قال لموسى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٩]، فحملهم على عبادته من دون الله ﷻ.

قوله: (وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ): علم الغيب لا يعلمه إلا الله ﷻ فإنه على اسمه: غيب؛ فالكهان، والسحرة، والمنجِّمون، والمتنبئون الكذابون، ومن على شاكلتهم، جميعًا طواغيت؛ لأنهم يدَّعون علم الغيب، فيزعمون أنهم يخبرون بالأمور الغائبة والأمور المستقبلة؛ وقد قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥]. فكل من ادعى علم الغيب بأي صورة من الصور، فإنه طاغوت.

وأما إن اطلع على بعض الأمور المعلومة لكن بطرق معقولة، فهذا لا يدخل في ذلك، كما يجري عن طريق الاتصالات السريعة، فهذا ليس من ادعاء علم الغيب؛ بل من ادعاء علم الشهادة، لكن علم الغيب الذي لا يكون إلا مستقبَلًا أو أمورًا لا يمكن إدراكها، فهذا لا يكون إلا كاهنًا أو ساحرًا أو منجمًا. وقد كثروا - لا كثَّرهم الله - واستغلوا ضعف الناس، وصاروا يجلبون أموالهم بغير حق، بدعوى أنهم يخبرونهم بالمغيبات.

ومن شواهد ذلك في العصر الأخير: ما يسمى بالمطالع والنجوم والأبراج فقد شاع وفشا في بعض المجلات التافهة، ما يسمى بالأبراج، يقولون: إذا كنت أنت من برج الحمل أو من برج الأسد أو من برج كذا

وكذا، سيقع لك كذا وكذا. هذا رجم بالغيب، يجب أن يحارب وأن ينبذ وأن يحذر منه.

وكذلك ما يدَّعيه بعض الناس من قراءة الكف، يأخذ كف الإنسان ويرمق الخطوط التي به ويقول: هذا الخط يدل على كذا، وهذا الخط يدل على كذا. هذا زور وبهتان وأكل لأموال الناس بالباطل، وبعضهم يدعي القراءة في الفنجان.

وأصحاب العقول الضعيفة، وأصحاب العقائد الرقيقة، تنطلي عليهم مثل هذه الأمور ويصدقونها، ويجب على أهل العقيدة والإيمان أن يقفوا سدًّا منيعًا وأن يقمعوا هؤلاء المفسدين والسحرة؛ حتى إنهم اتخذوا في الآونة الأخيرة قنوات للسحر، يتصل بهم المتصلون ويذكرون لهم بعض الأشياء؛ ويهرفون بما لا يعرفون ويخبرونهم بما سيقع لهم مستقبلًا. فهذه أيضًا مما يجب التحذير منها ومحاربتها، والحيلولة بينها وبين الناس.

قوله: (وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ).

الحكم بغير ما أنزل الله

وقد أنزل الله تعالى في سورة المائدة آيات محكمات في تعظيم هذا الأمر وتشنيعه، فقال الله ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧]، في آيات متواليات.

وقال بعد ذلك: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، ثم قال بعد ذلك: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

فجاءت هذه الآيات العظيمات في سورة المائدة في تكفير من حكم بغير ما أنزل الله، والتشنيع عليه، ووجوب التزام الشريعة التي أنزلها الله، والتحذير من الاستدلال والافتتان والتخلي عن بعض ما أنزل الله تعالى؛ وبيان أن ما ثَمَّ إلا حكم الله وحكم الجاهلية، ولا سواء، ولا مقارنة بين الأمرين: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

كما أن الله ﷻ نفى الإيمان عمن استغنى عن حكمه بحكم غيره، فذكر الله ﷻ طائفةً من المنافقين، قال عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦٣]، إلى أن قال ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فهذه الآيات تدل على وجوب الحكم بما أنزل الله ﷻ، لأن الله تعالى ما أنزل هذه الشريعة لكي تكون مادةً تحفظ في الكتب وتصف على الرفوف، وإنما أنزل الله هذه الشريعة لتحتكم إليها البشرية؛ فتصلح بها

أحوالهم وتستقيم أمورهم وترد المظالم بسببها وتقام الحدود ببركتها ويندفع الشر.

فلا شك أن مَنْ نحَّى هذه الشريعة واستبدلها بقوانين وضعية أنه طاغوت من الطواغيت الخمسة الذين عدهم الشيخ رَحِمَهُ اللهُ.

الحكم بغير ما أنزل الله من حيث هو، كفر وظلم وفسق؛ لأن الله قد سمَّاه كفرًا، وفسقًا، وظلمًا، وهذا لا يختلف عليه اثنان ممن يقرؤون القرآن، ولكن هل هذا الكفر كفر أكبر أم كفر أصغر؟ وهل ذلك الفسق فسق أكبر أم فسق أصغر؟ وهل ذلك الظلم ظلم أكبر أو ظلم أصغر؟ لأن الأكبر من هذه الثلاثة مُخرج عن الملة، والأصغر لا يخرج عن الملة.

قد اختلف المفسرون في هذا الأمر، والصحيح في هذا هو التفصيل، فإنه يفرَّق بين أن يحكم حاكم بغير ما أنزل الله في قضية عين، تحمله عليها رغبةٌ أو رهبةٌ، وبين أن يقنن قانونًا ويُسن نظامًا ويحمل عليه الكافة؛ فالذي يحكم في قضية عين بغير ما أنزل الله رغبةً أو رهبةً؛ قد أتى كبيرةً لا تبلغ به مبلغ الكفر.

مثال ذلك:

احتكم رجلان إلى حاكم شرعي، فحكم للجاني على المجني عليه محاباةً له؛ لأنه من جماعته وأصحابه، فقد حكم بغير ما أنزل الله لكن في قضية معينة، فهذا لا يبلغ مبلغ الكفر، لكنه أتى كبيرةً، ولا ريب.

أو حكم للظالم على حساب المظلوم رهبةً من الظالم وخوفًا منه، فهذا قد حكم في قضية عين بغير ما أنزل الله، فإنه لا يكون كافرًا كفرًا أكبر مُخرجًا عن الملة.

كما قال ابن عباس في رده على الخوارج: «إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، إنه ليس كفرًا ينقل عنه الملة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، كفر دون الكفر»[(١)].

أما إذا شرَّع الإنسان شرعًا للناس واستعاض به عن شرع الله المنزل، ودعاهم إليه، وحملهم عليه، وزهَّدهم في شرع الله ﷻ، فهذا لا ريب أنه ينبئ عن كفر أكبر، قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. فسمَّاهم الله تعالى شركاء، فكأن هذا منازعة لله ﷻ في حق من حقوقه المتعلق بربوبيته وألوهيته أيضًا، فإن من ربوبيته الأمر: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فهو الآمر سبحانه، لا يجوز أن ينازع سبحانه في هذا الأمر، وطاعته من هذا الجانب: من التعبد إليه ومن حقوق ألوهيته، فمن أجل ذا كان الحكم بغير ما أنزل الله يتعلق به توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

فهذا هو القول الفصل في هذه المسألة: وهو أن يقال: أن من حكم في قضية عين رغبةً أو رهبةً لم يخرج بذلك عن حد الإيمان، ولم ينتقل إلى الكفر، ولكنه أتى كبيرةً ولا ريب، ويوصف عمله بأنه كفر وفسق وظلم لكنه أصغر، أما من سن قوانين، ودعا إليها، وحمل الكافة عليها، واستعاض بها عن شرع الله ﷻ فإن هذا يلحقه بالكفر الأكبر؛ لأنه ما كان ليصنع ذلك إلا لاعتقاده بأن هذه القوانين أفضل وخير من حكم الله ﷻ ومما أنزل الله تعالى، أو على الأقل أنها مساوية، وكِلَا الحالين تعتبر مُخرجةً عن الملة.

وقد ذكر ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ أن هولاكو الذي غزا البلاد الإسلامية من جهة المشرق، اتخذ لقومه قانونًا وضعه جده جنكيز خان يقال له: الياسق. جمع فيه أحكامًا من مختلف الملل والنحل والشرائع،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم: (٣٢١٩)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد»، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: (٢٥٥٢).

ومنها شريعة الإسلام، وحمل الناس عليها، وعد ذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الكفر[1]؛ فلأجل ذا لا يجوز لأهل الإسلام أن يستعيضوا بهذه القوانين الوضعية عن شريعة الإسلام؛ بل الواجب على أهل الإسلام أن يتمسكوا بالشريعة الإسلامية وأن يطبقوها، وألا يخبئوا شيئًا منها أو يستحيوا منه، فإن ما أنزل الله تعالى في كتابه من الأحكام والحدود هو غاية المصلحة لكل زمان، ولكل مكان، ولكل جيل وقبيل.

ويجب علينا ألا نخفي شيئًا منها أو أن نعتذر عن شيء منها، فإن بعض الذين خالطوا الغرب، وتأثروا بثقافتهم، صاروا يستحون من أن تتضمن شريعتنا قطع يد السارق، ورجم الزاني المحصن وجلده، ويعتبرون أن ذلك منافٍ لحقوق الإنسان! كثير منهم الآن يتلجلج ويجمجم ويغمغم عند ذكر حد الردة، إذا قيل له: هذا يتنافى مع حرية الرأي، يا سبحان الله! ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

الدول المختلفة تسن قوانين من قوانين الإعدام فيما يسمونه بالخيانة العظمى لو ارتكب أحد أفرادها شيئًا مخلًّا بالأمن العام والمصلحة القومية لقومهم، ويرونه مستحقًّا للإعدام، فكيف يستعظمون أن يكون المرتد عن دينه الذي أتى أكبر خيانة غير مستحق لحد الردة!

قد يقول قائل: لا تتمكن دولة ما أو نظام ما من تطبيق حد الردة. هذا شيء، لكن أن يقال: ليس من دين الله حد الردة، ليس من دين الله حكم الرجم، شيء آخر، فلا يجوز جحد ما أنزل الله في كتابه، ورده لمجرد ظنون وأوهام أو مصالح مزعومة أو مصالح ملغية، فعلينا أهل

---

(١) تفسير ابن كثير، تحقيق سلامة (٣/ ١٣١)، والبداية والنهاية طبعة هجر (١٦/ ٧٢٧).

الإسلام أن نعتز بديننا وشريعتنا، ونعلم أن ما أنزل الله تعالى هو الحق والمصلحة، وأن به تندفع الشرور، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«حَدٌّ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ، خَيْرٌ لِلنَّاسِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا ثَلَاثِينَ ـ أَوْ أَرْبَعِينَ ـ صَبَاحًا»**(١).

لكن الدول الغازية لبلاد المسلمين ـ بعد انفراط نظام الخلافة العثمانية ـ استغلت ضعف المسلمين وأحلت هذه القوانين الوضعية: القانون الفرنسي، القانون الإنجليزي، القانون الألماني... إلى آخره، في الممالك الإسلامية المختلفة؛ وضيَّقت الخناق على الشريعة الإسلامية، فلا يكاد يحكم بالشريعة الإسلامية إلا فيما يسمونه بالأحوال الشخصية؛ في مسائل الطلاق والنكاح، وربما إلى حد يسير فيما يتعلق بالمواريث، وأما بقية الأحكام المتعلقة بالأمور المالية والجنائية والحدود فقد نحيت جانبًا وهُجِرت، وهذا أمر عظيم، يجب على المسلمين أن يراجعوا أنفسهم، ويعودوا إلى دينهم، ونسأل الله تعالى أن يثبت القائمين على الحكم بما أنزل الله وأن يمسكوا بالكتاب.

قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾): ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾: أي: لا مُحوِج للإكراه في الدين، وقد تبين الرشد من الغي، فإن الدين ظاهر بيِّن، أدلته ساطعة، وبراهينه ناصعة، فلا إكراه في الدين. (والغي): هو الضلال. ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾: كأن هذه الجملة جملةٌ تعليليةٌ لبيان عدم الإكراه في الدين، فكل عاقل استبان له الحق والرشد، فإنه يتجه إليه غير مكره؛ بل مختارًا، وليس معنى ذلك: أن لا إكراه في الدين أن يخلى كل أحد ولا يُدعا إلى

---

(١) أخرجه أحمد، رقم: (٨٧٨٣)، وابن ماجه، رقم: (٢٥٣٨)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: (٢٣١).

الإسلام، كما يدعي العصرانيون بالحرية الفكرية، وأن لكل أحد أن ينثر كنانته وينشر غيه وفساده. كلا؛ بل الواجب على من بسط الله تعالى يده أن يقيم الملة المعوجة، وأن ينشر الحق الذي أنزله الله تعالى، وأن يمنع الباطل وألا يمكن لأهل البدع والفساد والغي من أن يفسدوا المجتمعات.

لكن أهل الإسلام يدعون إلى دين الله ﷿، فإن كان لهم شوكة وسلطان دعوهم إلى الإسلام، فإن اعتنقوه فذاك، وإن أبوا عرضوا عليهم الجزية، فإن بذلوها عن يد وهم صاغرون خُلي بينهم وبين ما يدينون، غير أنهم لا يظهرون شيئًا ينافي أمور الإسلام العامة، فإن أبوا فالسيف؛ هكذا كان النبي ﷺ يصنع مع أعدائه ومخالفيه.

وهذا الأمر يرتبط بحال أهل الإسلام قوةً وضعفًا؛ فإنهم يكونون في بعض الأحوال ممكَّنين وعندهم قوة وشوكة، وفي بعض الأحيان يلحقهم ضعف فلا يتمكنون من تطبيق ذلك؛ ولهذا كان القول الراجح: أن الآيات النازلة في أمر الجهاد آيات مرحلية، تنزَّل كل آية على الحال التي يناسبها:

فالمؤمنون قيل لهم في مكة: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]. لأنهم كانوا مستضعفين، لا يستطيعون أن يواجهوا عدوهم.

ولما قال العباس بن عبادة بن نضلة ﵁ للنبي ﷺ: والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيافنا. قال رسول الله ﷺ: **«لَمْ أُؤمَرْ بِذَلِكَ»**(١).

ثم لما كان لهم نوع منعة في المدينة أُذِن له بقتال من يقاتلونهم:

---

(١) أخرجه أحمد، رقم: (١٥٧٩٨) وحسَّن إسناده شعيب الأرنؤوط في المسند، ط. الرسالة.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩]، ثم لما مكّنهم الله ﷻ نزلت آية السيف: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٥].

إذن ينبغي أن نلحظ هذا المعنى، ولا يصح لإنسان أن يُعْمِل آيةً في غير موضعها، وأن يقوم بأعمال حمقاء أو تصرفات هوجاء، ويفسد على أهل الإسلام أمرهم أو يجرهم إلى أمور تعود عليهم بالضرر، هذه الأمور العامة من شأن ولاة الأمور وأهل الحَل والعقد، ولا يصح في الأمور العامة أن ينفرد كل أحد برأيه ويفعل ما زينه له عقله، لا بد من الرجوع في الأمور العامة إلى أهل الحَل والعقد من الأمراء والعلماء؛ حتى تكون كلمة المسلمين واحدةً وتصدر عن رأي واحد.

قوله: (قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾): وهذا معنى: لا إلـٰه إلا الله، إذن لا بد من اجتماع الأمرين: الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فهما ركنان أساسيان، لا بد من اجتماعهما، لا انفكاك لأحدهما عن الآخر، والعروة الوثقى: هي لا إله إلا الله، ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، ومعنى الوثقى التي لا تنفصم؛ فالعروة الوثقى هي كلمة التوحيد، ومن استمسك بالعروة الوثقى فقد أمن وسَلِم وبلغ ما ينشده في الدنيا والآخرة.

قوله: (وَفِي الْحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»)[1]: هذا في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه.

---

(١) أخرجه أحمد، رقم: (٢٢٠٤٧)، والترمذي، رقم: (٢٦١٦)، وابن ماجه، رقم: (٣٩٧٣).

رأس الدين

قوله: (رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامِ): والمراد بالإسلام هنا الذي هو بمعنى التوحيد؛ أي: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك، فهذا هو رأس الأمر.

عمود الدين

قوله: (وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ): لأن الصلاة أعظم شرائع الدين العملية، فهي بمنزلة العمود للخيمة، وهذا يدلنا على أن الصلاة لها ميزة وخاصية ليست في بقية الشرائع العملية، وأي شيء سقط عموده فقد سقط؛ فلهذا كان القول الراجح من أقوال أهل العلم أن تارك الصلاة ـ ولو تهاونًا وكسلًا ـ كافر كفرًا مخرجًا عن الملة، وحسبك بهذا الوصف أن الصلاة هي عمود الدين، فمن لا عمود لدينه لم يكن له دين، كما أن من لا عمود لخيمته وفسطاطه، سقطت خيمته وفسطاطه؛ ولأدلة أخرى لا تخفى.

وأمر الصلاة عظيم جدًّا، ويجب أن نعظمه في النفوس؛ فإن من الناس من لا يرفع بالصلاة رأسًا، ولا يرى بتركها بأسًا، والحقيقة أن هذه الشعيرة هي الصلة الحقيقية بين العبد وربه؛ شرعها الله أول ما شرعها خمسين صلاةً في اليوم والليلة، وهذا يدل على عظمها، ثم آل الأمر إلى خمس، فهي خمس في الفعل خمسون في الميزان. لما علم الله من حال عباده أنه تكتنفهم الغفلات والشهوات والشبهات جعل لهم هذه المحطات الخمس في اليوم والليلة؛ لكي ينصع القلب.

وقد صورها النبي ﷺ بتصوير بديع، فقال: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ**». قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قَالَ: «**فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ**

يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»[١].

فلو كان أحدنا ينغمس يوميًّا في مجرى نهر خمس مرات لصار نظيفًا ناصعًا، لا يبقى على بدنه وبشرته درن، فهذه الصلوات الخمس كذلك، تنقي القلب وتطهره من الأوشاب والأخلاط التي تنشأ عن مجريات الحياة اليومية.

لكن مع ذلك فالناس يتفاوتون، فمن الناس من يؤدي هذه الصلوات جري العادة، فلا يحصل له الانتفاع التام. أما إذا أقبل الإنسان بكليته على هذه الصلاة العظيمة، وصفَّ قدميه في محرابه، وصوَّب بصره إلى موضع سجوده، ووضع يده اليمنى على اليسرى بين يدي ربه، واستشعر قيامه بين يديه وعبوديته له، وقال رافعًا يديه: الله أكبر. فألقى الدنيا خلف ظهره، واستشعر مثوله بين يدي ربه، وأخذ يناجي، ويتأمل فيما يقرأ، وفيما يذكُر، وجد في هذه العبادة ساحًا فِساحًا يُبحر فيها في عبودية الرب ﷻ، ثم إذا تأمل في هيئات الصلاة: في ركوعه وسجود وقيامه وانحطاطه؛ وجد من معاني التوحيد والخضوع ما يحصل به حياة القلب، معنى أن تركع وتحني صلبك خضوعًا لله ﷿، معنى أن تسجد وتضع أشرف ما فيك في الأرض التي تطؤها بقدميك؛ تعظيمًا وإجلالًا للرب ﷻ، لو أنَّا تأملنا في هذه المعاني المضمنة في الأقوال والأذكار والأدعية والحالات، لحققنا الخشوع في الصلاة الذي يجده الصالحون.

إن من أخص أوصاف المؤمنين: الخشوع في الصلاة، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

---

(١) صحيح البخاري، رقم: (٥٢٨)، صحيح مسلم، رقم: (٦٦٧).

فإذا أردت أن ترى موقعك في سُلَّم الإيمان، فانظر حالك مع الصلاة، هل أنت إذا دخلت في صلاتك استجمعت همك، وخشع قلبك، ورأيت أنك في حال اتصال مع الله ﷻ لأن الصلاة صلة؟ أم أنك إذا دخلت في الصلاة انفتحت عندك جميع المهام الدنيوية، وصرت تذهب يَمنةً ويَسرة في أودية الدنيا، فلا تشعر إلا والإمام يقول: السلام عليكم ورحمة الله؟! علينا أن نحسن صلاتنا، أن نضبط صلاتنا، فإنها إن صلحت؛ صلح جميع حالنا.

ذروة سنام الدين

قوله: (وذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ): ذروة الشيء أعلاه؛ لأن المقصود بالجهاد أن تكون كلمة الله هي العليا، فعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»**[1].

والجهاد باق في هذه الأمة إلى يوم القيامة: **«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**[2]، وقال نبينا ﷺ: **«وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي»**[3]، وأحاديث الفتن والملاحم التي تقع في آخر الزمان دالة دلالةً أكيدةً على استمرار هذه الشعيرة، لكنها شعيرة مرتبطة بالحال العام للأمة، والذي يحكمها إعلانًا أو إيقافًا أو تأجيلًا هي السياسة الشرعية، لا يجوز لأحد ـ كائنًا من كان ـ أن يلغي الجهاد، لا

---

(١) صحيح البخاري، رقم: (١٢٣)، صحيح مسلم، رقم: (١٩٠٤) واللفظ له.
(٢) صحيح البخاري، رقم: (٧٣١١)، صحيح مسلم، رقم: (١٥٦) واللفظ له.
(٣) أخرجه أحمد، رقم: (٥١٤٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: (٢٨٣٢).

يختلف اثنان من المسلمين على أن الجهاد شعيرة باقية إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال.

لكن إعلان الجهاد والنفير يدخل في باب السياسة الشرعية، وتقدير أهل الحل والعقد، بحيث: هل الأصلح الجهاد أو المصالحة؟ فباب السياسة الشرعية غير باب الثوابت العقدية، فمن الثوابت العقدية شعيرة الجهاد، أما السياسة الشرعية فتختلف باختلاف الأحوال، وقد وقع لنبينا ﷺ أحوال متنوعة.

مثال ذلك: حينما تحزبت الأحزاب على المسلمين في المدينة، عشرة آلاف مقاتل من غطفان وقريش وسائر العرب أتوا ليستأصلوا شأفة الإسلام، بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا ومن معهما عن رسول الله وأصحابه، فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة، وفي ذلك ففعلا.

فلما أراد رسول الله أن يفعل بعثًا إلى سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، وذكر ذلك لهما واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله، أمر تحبه فنصنعه، أو شيء أمرك الله به لا بد لنا من عمل به، أم شيء تصنعه لنا. فقال: «**لا، بل لكم، والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم**». فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرًى أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا! والله ما لنا بهذا من حاجة. والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم[(١)].

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٣٠).

لما رأى استعدادهم وشجاعتهم وتحملهم لهذا الأمر المقبل خلى بينهم وبين هذا الأمر.

فلا حرج أن يقع في بعض الأحوال من ولي الأمر نوع مصالحة؛ لدفع شر متوقع أو نحو ذلك، فهذا باب واسع لا نضيق به ذرعًا.

مثال آخر: وهذا صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ اللَّهُ الذي كان له قدم صدق مُعَلًّى في الجهاد في سبيل طرد الصليبيين، اضطُر في موقف من المواقف إلى أن يُبرم صلحًا مع الصليبيين عرف باسم (صلح الرملة)؛ ليدفع شرهم، وبقيت عكا في أيديهم حتى مكثوا فيها من بداية الحروب الصليبية إلى نهايتها نحو مائتي سنة.

فذروة سنام الإسلام هو الجهاد في سبيل الله؛ لما فيه من إعزاز الدين، وإعلاء كلمته، ونشره في الخافقين، وما يترتب عليه من المصالح العظيمة في إدخال الناس في دين الله أفواجًا، حتى جاء وصفهم في الحديث أنهم يدخلون الجنة في السلاسل.





خاتمة

قوله: (وَاللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ): ختم المؤلف رَحِمَهُ اللهُ كتابه برد العلم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا شك أن الله تعالى أعلم، ونبيه ﷺ أعلم أيضًا في الأمور الشرعية.

فتقال هذه الكلمة ـ **(الله أعلم)** ـ في الأمور الكونية والشرعية، وله أن يقول: (الله ورسوله أعلم) في الأمور الشرعية فقط، لكن لا يقول: (الله ورسوله أعلم): في الأمور القدرية الكونية؛ لأن النبي ﷺ لا يعلم من الأمور الكونية القدرية إلا ما أعلمه الله، فإذا قال لك صاحبك مثلًا: هل قدم فلان من السفر؟ لا يستقيم أن تقول: الله ورسوله أعلم؛ لأن هذا أمر يعلمه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ولا يعلمه نبيه ﷺ.

قوله: (وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ): وختم بالصلاة على نبيه ﷺ، والصلاة من الله على نبيه أحسن ما قيل فيها: ما ذكره أبو العالية رَحِمَهُ اللهُ فيما رواه عنه الإمام البخاري: أي: «صَلَاةُ اللهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ»[(١)].

والآل والأصحاب اصطلاحان: فالآل يطلق على الأتباع على الدين، فإذا قيل: آل محمد: فهم أتباعه على دينه إلى يوم القيامة، كما قال الإمام أحمد[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، (١٢/ ١٠)، ط. دار طوق النجاة.

(٢) جلاء الأفهام (٢٧٥).

أما إذا قُرن الآل بالأصحاب فإن الآل ينصرف إلى المؤمنين من آل بيته؛ لأن آل الرجل وآل البيت: هم القرابة، وهم خمسة بطون من قرابة النبي ﷺ، ولا شك أن لقرابة النبي ﷺ منزلة وخاصية، سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُرْبَى آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَعَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ فَقَالَ: «إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ القَرَابَةِ»[١]، على أحد التفسيرين، لما ذكر له العباس أن بعض قريش يجفو بني هاشم، فقال رسول الله ﷺ: «**وَاللهِ، لَا يَدْخُلُ قَلْبَ امْرِئٍ إِيمَانٌ حَتَّى يُحِبَّكُمْ للهِ، وَلِقَرَابَتِي**»[٢]، فنحن نتقرب إلى الله ﷻ بمحبة قرابة نبيه ﷺ وهذه البيوت هم: آل علي، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس، وآل الحارث بن عبد المطلب، الذين تحرم عليهم الصدقة. فنحب آل بيت النبي ﷺ ونتقرب إلى الله ﷻ بمودتهم ونصرتهم.

أما صحبه: فهي جمع صاحب أو جمع صحابي، وتعريف الصحابي: من اجتمع بالنبي ﷺ في حياته مؤمنًا به ومات على ذلك[٣]. وقولنا: من اجتمع بالنبي ﷺ أو من لقي النبي ﷺ خير من أن نعبر: من رأى النبي ﷺ لأن الصاحب ربما كان أعمى لا يرى؛ فلذلك كان التعبير الأجمع أن يقال: من اجتمع أو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به.

---

(١) أخرجه أحمد، رقم: (٢٠٢٤)، والترمذي، رقم: (٣٢٥١)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح وقد روي من غير وجه عن ابن عباس».

(٢) أخرجه مطولًا الترمذي، رقم: (٣٧٥٨)، والنسائي في السنن الكبرى، رقم: (٨١٧٦)، وأحمد، رقم: (١٧٧٢) بنحوه، وابن ماجه، رقم: (١٤٠) باختلاف يسير.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة (١/٨ ـ ٩).

إذن لا بد أن تكون هذه اللُّقيا وهذا الاجتماع حال الإيمان، فلو أن الصحابي لقي النبي ﷺ حال كفره ثم فارقه ولم يلقه بعد ذلك، ودخل في الإسلام، فلا يكون صحابيًّا؛ لأنه لم تحصل اللقيا حال الإسلام، وقد وقع ذلك لكثيرين، لقوا النبي ﷺ في الموسم أيام كان يعرض نفسه على القبائل؛ فلم يستجيبوا لدعوته، ولم يدخلوا في الإسلام إلا بعد موته، فلا يدخل هؤلاء في عداد الصحابة، إذن لا بد أن يلقاه مؤمنًا به في حياته، وفائدة هذا القيد: أنه لو لقيه بعد موته؛ فإنه لا يكون صحابيًّا، وهذا قد لا ينطبق إلا على رجل واحد، قدم مهاجرًا للمدينة في اليوم الذي مات فيه النبي ﷺ ورآه مُسَجًّى[1]، رآه بعد موته، فلا يكون ذلك قد أردك درجة الصحبة.

ومات على ذلك: إذن لا بد أن يموت على الإيمان، فلو مات ـ والعياذ بالله ـ على ردة زال عنه وصف الصحبة.

وأما من تخللت صحبته ردة ثم عاد إلى الإسلام؛ فالقول الصحيح أنه يبقى له وصف الصحبة ولا يزول عنه، وهذا ينطبق على كثيرين ممن وقعت منهم الردة: كطليحة بن خويلد الأسدي، فإن الله مَنَّ عليه ورجع.

قوله: (وَسَلَّمَ): هذا دعاء للنبي ﷺ بالسلامة، أما الدعاء له بالسلامة في حياته فظاهر: وهو أن يعصمه الله من الناس فلا يصلون إليه بأذى، وأما الدعاء له ﷺ بالسلامة بعد موته: فهو دعاء لدينه أن

---

(١) أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المشهور، واسمه خويلد بن خالد، أسلم على عهد النبي ﷺ ولم يره، وقدم المدينة يوم وفاته، فشهد السقيفة، وبيعة أبي بكر، والصلاة على النبي ﷺ ودفنه، قال ابن كثير: «توفي غازيًا بإفريقيَّة في خلافة عثمان رضي الله عنه». انظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٣/ ٣٥٨)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (١/ ٢٤٥)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١/ ١٤٥).

يسلمه الله من البدع والإضافة والتغيير؛ ولهذا أمرنا الله تعالى بذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ونبيك محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبذلك تمَّت هذه الرسالة المباركة، وأدعوكم ـ يرعاكم الله ـ إلى مراجعتها وحفظها. والله أعلم.



المراجع

١ ـ **الأدب المفرد بالتعليقات**، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين الزهيري، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢ ـ **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، عدد الأجزاء: ٨، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٣ ـ **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، المؤلف: أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري، المحقق: جعفر الناصري/ محمد الناصري، الناشر: دار الكتاب، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، الدار البيضاء، عدد الأجزاء: ٣.

٤ ـ **الاعتصام**، للشاطبي، المؤلف: أبو إسحاق الشاطبي، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، مصر، عدد الأجزاء: ٢.

٥ ـ **الانتماء في الشعر الجاهلي**، المؤلف: د. فاروق أحمد أسليم، من منشورات اتحاد الكتاب العرب.

٦ ـ **البداية والنهاية**، المؤلف: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، الناشر: مكتبة المعارف، بيروت، عدد الأجزاء: ١٤.

٧ ـ **بدائع الفوائد**، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

٨ ـ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، المحقق: د. عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٩ ـ **تاريخ نجد المسمَّى «روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام»**، المؤلف: الحسين بن غنام، المحقق: ناصر الدين الأسد، الناشر: دار الشروق، الطبعة الرابعة، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

١٠ ـ **التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار**، المؤلف: أبو الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب الحنبلي، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

١١ ـ **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، المحقق: عبد القادر الأرنؤوط، التتمة تحقيق بشير عيون، الناشر: مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى.

١٢ ـ **جامع البيان في تأويل القرآن**، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، عدد الأجزاء: ٢٤، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٣ ـ **الجامع الصحيح**، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، حسب ترقيم فتح الباري، الناشر: دار الشعب، القاهرة، عدد الأجزاء: ٩، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٤ ـ **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، المؤلف: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، المحقق: أحمد محمد شاكر وآخرون، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٥ ـ **جامع المسائل لابن تيمية ـ عزير شمس**، المؤلف: تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: محمد عزير شمس، المشرف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٦ ـ **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، المؤلف: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر، المحقق: د. محمود الطحان، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، عدد الأجزاء: ٢، ١٤٠٣هـ.

١٧ ـ **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام**، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، المحقق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار العروبة، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٨ ـ **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، المؤلف: عبد الرحمٰن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، عدد الأجزاء: ٢، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

١٩ ـ **الدرر السنية في الأجوبة النجدية**، المؤلف: علماء نجد الأعلام، المحقق: عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم، عدد الأجزاء: ١٦، الطبعة السادسة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٠ ـ **السلسلة الصحيحة**، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، عدد الأجزاء: ٧.

٢١ ـ **سنن ابن ماجه**، المؤلف: محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الفكر، بيروت، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، عدد الأجزاء: ٢.

٢٢ ـ **سنن أبي داود**، المؤلف: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الفكر.

٢٣ ـ **السنن الكبرى**، المؤلف: أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، المحقق: حسن عبد المنعم شلبي، المشرف: شعيب الأرناؤوط، المقدِّم: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

٢٤ ـ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٥ ـ **صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري**، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصدّيق، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٢٦ ـ **صحيح الترغيب والترهيب**، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الخامسة.

٢٧ ـ **صحيح مسلم**، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، عدد الأجزاء: ٥.

٢٨ ـ **طبقات الشافعية الكبرى**، المؤلف: الإمام العلامة تاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، المحقق: د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، عدد الأجزاء: ١٠، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

٢٩ ـ **الطبقات الكبرى**، المؤلف: محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت، عدد الأجزاء: ٨، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.

٣٠ ـ **عمل اليوم والليلة**، المؤلف: أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، المحقق: د. فاروق حمادة، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

٣١ ـ **الكامل في اللغة والأدب**، المؤلف: محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٣٢ ـ **المجتبى من السنن**، المؤلف: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمٰن النسائي، المحقق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، عدد الأجزاء: ٨، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٣٣ ـ **مجموع الفتاوى**، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، المحقق: أنور الباز، عامر الجزا، الناشر: دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٤ ـ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، عدد الأجزاء: ٣، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٣٥ ـ **المستدرك على الصحيحين**، المؤلف: محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المحقق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٣٦ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المحقق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، المشرف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

٣٧ ـ **مسند البزار (المطبوع باسم البحر الزخار)**، المؤلف: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، المحقق: محفوظ الرحمٰن زين الله، (حقق الأجزاء من ١ إلى ٩)، وعادل بن سعد (حقق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧)، وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء ١٨)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى.

٣٨ ـ **مصنف عبد الرزاق**، المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المحقق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، عدد الأجزاء: ١١، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٣٩ ـ **المعجم الكبير**، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية، عدد الأجزاء: ٢٥.

٤٠ ـ **معرفة السنن والآثار**، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشرون: جامعة الدراسات الإسلامية (كراتشي ـ باكستان)، دار قتيبة (دمشق ـ بيروت)، دار الوعي (حلب ـ دمشق)، دار الوفاء (المنصورة ـ القاهرة)، عدد الأجزاء: ١٥، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٤١ ـ **مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب**، المؤلف: محمد بن عبد الوهاب، الناشر: مكتبة ابن تيمية، عدد المجلدات: ١٣.

٤٢ ـ **الهدية النجدية**، المؤلف: سليمان بن سحمان النجدي، مطبعة المنار بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٤٢هـ.

٤٣ ـ **تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء (١/ ٣٦٠ ـ ٣٦٢)**، المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، المحقق: عبد العزيز بن محمد الخليفة، الناشر: مكتبة الرشد، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.



فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

